

المسيحية

من نبتة إلى المهدية

بقلم الأستاذ:

عبد المحمود أبو شامة

962-401
عبد المحمود



المسيحية

من نبذة إلى المهدية

بقلم الأستاذ:

عبد المحمود أبو شامة

كتاب يؤرخ لدول النوبة الثلاث ومسيحياتها وحروبها ثم تلاشيها وظهور
المسيحية مرة أخرى إبان الحكم التركي للسودان وضمحلها إبان حكم المهدية.

تقديم

لصاحب الفضيلة مولانا دفع الله الحاج يوسف مدني

درج الأستاذ/ عبد المحمود أبو شامة في كل مؤلفاته التي تتناول جانباً من تاريخ السودان لا سيما فترتي الحكم التركي والمهدية، على اتباع منهج متميز يجعل لمؤلفاته قيمة علمية فريدة. إنه لا يكتفي بسرد الحدث التاريخي كما ورد في المراجع المتداولة ولا يقتصر على مقارنة مختلف الروايات وترجيح رواية على أخرى، وإنما يجهد نفسه في تحقيق متأن في كل حدث تاريخي مستعيناً بكثير من المصادر التي لم تتوفر لمن سبقه في الكتابة، لا سيما المصادر التي مضت المدة القانونية على سريتها وصارت متاحة للباحثين. لقد ساعده على ذلك قدرته على استيعاب الأحداث، ومنهج نقدي وإدراك واع للمؤثرات المختلفة التي أدت إلى ذلك الحدث الذي يتصدى للكتابة عنه.

إن عمله بهيئة الإذاعة البريطانية وفي الإذاعة الهولندية وقيامه

مولانا دفع الله الحاج يوسف مدني، وزير التربية والتعليم، وزير الشؤون الدينية والأوقاف، ورئيس القضاء الأسبق، والمحاضر بكلية القانون بجامعة الخرطوم

بمهمة المراسل الحربي في بعض الأحيان، مكنه من الاطلاع على الكثير من الوثائق، وذلك أمر لم يتح لغيره من الكتاب. أخذ بهذا المنهج في سفره القيم (من أبا إلى تسلهاي) الذي نفذ إلى ما وراء الأحداث، وأضاف الكثير من المعلومات والتحليل العلمي الواعي.

وتتميز كتابة الأستاذ/ عبد المحمود بميزة أخرى، إذ تشتمل على بعد إنساني يضيف على الحدث التاريخي كما يرويهِ لونا وطعما من ناحية، ومن ناحية ينفذ إلى ما وراء الحدث فيتناول الأشخاص الذين شاركوا في صنعه بالدراسة والتحقيق في دوافعهم ومشاعرهم، فتحس وأنت تقرأ ما كتب، كأنك تعرفهم معرفة وثيقة، وتكون أكثر تفهماً للدوافع التي حملتهم على ما أتوا من أفعال. ليس ذلك فحسب بل إنه يتميز بمقدرة فائقة في رواية الحدث في إطاره الزماني والمكاني، محيطاً بأبعاده القطرية والإقليمية والدولية لتصبح قراءة ما كتب متعة ذهنية لا تعادلها متعة، بل تدفع بالقارئ إلى التفكير العميق والتفاعل الوجداني مع الحدث.

ولقد سعدت بقراءة مسودة سفره القيم هذا (المسيحية من نبذة إلى المهدية) الذي يتناول تاريخ دخول المسيحية في السودان متبعاً الظروف التي أحاطت بذلك ومؤرخاً لكل من كان له إسهام في ذلك

العمل. وهو لا يعالج دخول المسيحية في السودان كحدث منفصل عن تاريخ السودان الغابر والحضارات التي ازدهرت وتلاشت. ولا يتناول ذلك الحدث منفصلاً عن ما كان يجري في القارة الإفريقية ولا الظروف العالمية، بل هو يربط بين تلك الأحداث نافداً ومحللاً، ويخلص إلى نتائج ذات قيمة علمية وفكرية تساعد القارئ على فهم صحيح لتاريخ السودان في إطاره المتكامل وهذا أمر ذو أهمية بالغة حتى لا نخطئ في فهم وقراءة التاريخ، فنخطئ في فهم الحاضر، ونقصر عن استقراء المستقبل.

وأكثر من ذلك، من خلال ذلك المنهج وذلك التناول تبرز مكونات الشخصية السودانية وميزاتها والقيم التي تأصلت في وجدان السودانيين. وبالرغم من أن تناوله لتاريخ السودان كان مقدمة لما هو بصدده إلا أنه كان تناولاً موجزاً وموضوعياً ومفيداً. ومن خلال ذلك صحح الكثير من المسلمات التي تناقلها كتاب التاريخ وأبرزها العلاقة بين مختلف الأحداث التاريخية وتأثير بعضها على بعض. والعلاقة بين التبشير في ذلك العهد وسعي الدول الكبرى لتأمين مصالحها في القرن الإفريقي. وقد لعب المبشرون الأوائل دوراً كبيراً في سعيهم للحصول على الدعم لنشر الديانة المسيحية في دفع الدول الكبرى في ذلك الوقت للاستفادة من المعلومات المتوفرة والتخطيط بغرض

الهيمنة الاستعمارية. وتحلل الدراسة القيمة موقف الحكم التركي من التبشير، وموقف الدولة المهدية، وتضع ذلك في سياقه التاريخي الصحيح.

لقد أثبت الكتاب بالنسرد التاريخي والتحليل للأحداث الموثقة أن الدولة المهدية - تمسكاً بموقف الإسلام من أهل الكتاب - قد أحسنت معاملة المسيحيين الذين كانوا في السودان، وتجاوزت عن أخطائهم المتمثلة في التعامل مع أعدائها في ظروف الحرب، بتخزين السلاح أو بإرسال المعلومات إلى أجهزة الاستخبارات التي تعمل ضد الدولة، وأضفت كل حقوق المواطنة على كل من اعتنق الإسلام صدقاً أو رياءً، وأتاحت الحرية لمن أراد أن يتمسك بدينه من المسيحيين رجالاً أو نساءً.

ومن ناحية أخرى فإن الكتاب يؤرخ في سياق ذلك لمدينة الخرطوم، ويصف حياة سكانها بصورة مفيدة وممتعة، ومن خلال ذلك يبرز التسامح الديني الذي كان وما زال سمة السودانيين لإدراكهم العميق لتعدددهم العرقي والثقافي.

إن الكتاب إضافة حقيقية لدراسة تاريخ السودان وعمل رائد في ألا تقتصر الدراسة على تداول ما ورد في مختلف المصادر

المعروفة، بل تستوعب ما يحيط بكل حدث تاريخي من أبعاد مختلفة
لا سيما البعد الإنساني.

جزى الله خيراً الأستاذ/ عبد المحمود أبو شامة، وأمد في عمره،
حتى يتحف المكتبة العربية بالمزيد من هذه الأعمال المتميزة.

دفع الله الحاج يوسف مدني

أغسطس ٢٠٠١م

تقديم

الأب جيوفاني فانتيني

إننا نرى تصاعداً مستمراً لدى السودانيين - ولا سيما الشباب - في اهتمامهم بمعرفة تاريخ بلادهم. الدليل على ذلك جماعات طلبة المدارس - الأساس والثانوي - تتدفق على المتحف القومي بالخرطوم. دليل آخر، هو طلبة الجامعات الباحثون في عصور ما قبل التاريخ حتى يومنا هذا. كما ألاحظ أيضاً بحوث طلاب الجامعات في العصر المسيحي.

إن الأدوات والأسلحة الحجرية، والأسود المفترسة بوجوه بشر، وصفوف أبي الهول، وتمائيل جبارة لملوك حكموا هذه البلاد، وأواني منازلهم، واحتفالاتهم، وقصورهم، وصور معابدهم، كلها أشياء يندهش لها المشاهدون بالمتحف فقد اختفى

الأب جيوفاني فانتيني هو أكبر سلطة علمية في تاريخ المسيحية النوبة لكل المناهج الكنسية بالسودان. رُسم قساً لخدمة الكنيسة الكاثوليكية بالسودان في عام ١٩٤٧م، تعلم اللغة العربية، ونال درجة الدكتوراه في اللغات والحضارة الشرقية من جامعة نابولي. انضم عضواً لبعثة جامعة روما للتنقيبات الأثرية في السودان بين عامي (١٩٦٧-١٩٧٠م). أصبح أيضاً عضواً في جمعية الدراسات النوبية بوارسو عام ١٩٧٢م. إنه مؤلف لكتب عديدة عربية وإنجليزية في التاريخ المسيحي النوبي، وكتب في ذلك الكثير من المقالات الصحفية.

فإن صنعها وترك الناس استعمالها.

وربما يتساءل زائر المتحف القومي عن الفنانين الذين صنعوا تلك التماثيل والصور، وبلغوا في فنهـم درجة متقدمة من الهندسة والفيزياء والذوق الفني الجميل الذي قد لا يستطيع صنعه اليوم حملة الدبلومات الجامعية.

أجل إن زيارة المتحف مفيدة لاكتشاف الثقافة والمهارة والحضارة التي كانت لأناس لم نعرف شيئاً عنهم ولكنهم عاشوا بهذه البلاد وتركوا لنا آثارهم.

إن هذا الكتاب بمثابة دليل ليرى القارئ من صفحاته الأحوال التي عاش فيها هؤلاء القدماء الذين اندثروا في التراب، ونحن على دربهم سائرون. كما أنه يساعد في تصور أعمالهم وأنشطتهم وعقلائيـتهم، الشيء الذي يساعد في إدراك معاني التحف المحفوظة لدى المتحف.

إنني أرى بعثاً لتاريخ عصور السودان المختلفة، وفي هذا المجال فإننا نرحب بكتاب المؤرخ الأستاذ/ عبد المحمود أبو شامة الذي يتطوف بعصور خلت، ويتطلع إليها بعين باحثة ثاقبة نافذة، وينقل إلينا رؤيته التي ربما لم يلاحظها كتاب سبقوه.

إنني أتمنى أن يطلع على هذا الكتاب النابهون من القراء ليجدوا
فيه العلم الكثيف والاهتمام الذي أولاه الكاتب لبحثه.

الأب/ جيوفاني فانتيني
أمدرمان، أبريل ٢٠٠١م

دول النوبة الثلاث وأرض البجة



مطالع التاريخ الميلادي وجد بالسودان ثلاث ممالك هي: نبتة وتقع بين الشلال الأول (أسوان) والشلال الثاني (حلفا) وعاصمتها (فرس)، ثم مملكة المقررة وتقع بين الشلال الثاني والخامس (بالقرب من بربر) وعاصمتها دنقلا العجوز، وأخيرا مملكة علوه وتقع بين الشلال الخامس والجزيرة المروية حاليا، بل الجزيرة الحالية اسمها التاريخي هو جزيرة علوه. هذه المملكة عاصمتها سوبا بالقرب من الخرطوم.

إن تلك الممالك امتد تأثيرها إلى مناطق فاقت المناطق التي نشأت بها. فمملكة نبتة كان تأثيرها كبيرا على مناطق الصحراء الغربية، الشيء الذي شمل بعض الواحات في الغرب وشمل في الصحراء الشرقية حتى ميناء (عيزاب) بالبحر الأحمر وسواكن.

مملكة المقررة تأثيرها وصل حتى كردفان ودارفور وقبائل القرعان والزغاوة.

وأخيرا مملكة علوه وتأثيرها كان يشمل حتى تلال أثيوبيا.

مقومات بقاء تلك الدويلات:

الأمطار في مناطق الدويلات الثلاث كانت تختلف عن أمطار اليوم وحتى وقت قريب. ففي النصف الثاني من القرن التاسع عشر كانت الأمطار في الجزء الشمالي من السودان - مناطق أبي حمد - كافية لنمو العشب بكميات كبيرة كما ذكر شاهد عيان هو محمد طلعت في كتابه (غرائب الزمان). أما صمويل بيكر ففي عام ١٨٦٣م اصطاد الأسود مع قبائل الحمران على نهر عطبرة عندما زار تلك المنطقة مع (فلورنس) الفتاة التي تزوجها بعد رجوعه إلى بريطانيا.

كل الحفريات التي جرت في مناطق تلك الممالك أثبتت وجود الرعي والزراعة بكميات وافرة. كل ذلك لا غرابة فيه، فالأمطار ونهر النيل العظيم كفيلا بتقويم الإنتاجين.

بالإضافة إلى ذلك فقد استطاعت دول النوبة هذه - كما قال المسعودي في (مروج الذهب) - من زراعة النخيل والكروم والذرة والموز والحنطة والشعير والبقول.

وبنفس القدر استطاعت منطقة كبوشية من صهر الحديد وصناعة أسلحة حروب ذلك الزمان مع إنتاج الدرق من جلود فرس البحر.

إن كثيرا من المنتجات الزراعية والحيوانية كانت تصدر إلى مصر كما صدرت منتجات الحديد إلى مصر وغيرها من الدول المجاورة.

ديانة المنطقة:

عبد النوبة آلهة متعددة، ولكن اريس - إله الخصب - كان أكثرهم نفوذا، حيث بنى له الملوك معابد في جزيرة فيله، حتى أصبحت الجزيرة جزيرة مقدسة يأتي إليها الحجاج من مصر ومن ممالك النوبة ومن قبائل البلبيين (البجه).

الذي لا شك فيه أن دين موسى عليه السلام كان قريبا من مملكة نبتة بأسوان حيث سكنت جالية يهودية كبيرة في جزيرة (الفنتينه) المقابلة لأسوان، ومارست التجارة بين مصر ونبتة. رغم ذلك لم يسمع بيهودية تسربت إلى المنطقة ما عدا قصة الخصي القائم على خزائن الكنداكه (الملكة الأم بكبوشية، وكانت تسمى ملكة الحبش)، والذي تعلم اليهودية كما قال عنه الإنجيل (سفر أعمال الرسل، الإصحاح الثامن من ٢٦ إلى

(٣٩) إن الإنجيل قال عنه، إنه كان يقرأ أشعيا مع فيلبس ثم بشره الأخير وعمده مسيحيا.

المسيحية بمصر:

عندما دخلت المسيحية إلى مصر في القرن الأول، وجدت أنها ليست بعيدة عن معتقدات فراعنة مصر في التثليث (أوزريس، إيزيس وحورس)، فقبلوها سريعا وتبلورت حتى صارت جامعة مكتبة الإسكندرية كما قال دكتور ميلاد حنا في كتابه (نعم أقباط ولكن مصريون) صفحة ٤٥ مصدر الفكر المسيحي: إنها في الحقيقة كانت مركز الحوار الفكري الذي ظهر في مجمع (نيقية) عام ٣٢٥م، حيث تبعت مصر فلسفة مطران أنطاكيا (يعقوب) الذي رأى أن المسيح له طبيعة واحدة، فأسموهم بعد ذلك بالأرثوذكس - أي السلفيين.

ولعل انتشار المسيحية بمصر قد ساعد عليه توجيهها كحركة ثورية ضد الحكم الروماني الوثني. وفي عهد (ديوقليديانوس) بين عامي (٢٤٥ - ٣١٣) أرسل الرومان حملة تاديبية للتأثرين بمصر. ومن مذابحه اتخذ الأقباط يوم ٢٩ أغسطس ٢٨٤م بداية لتقويمهم القبطي الذي استمر إلى يومنا هذا.

هذا العامل الوطني الثوري جعل المسيحية في مصر تتطلق بسرعة فائقة وتتخذ لها جذورا في كل الدولة. وبالطبع فإن أقرب المتأثرين بها من الجيران سيكون ممالك النوبة.

طبقة النساك:

عمليات الاضطهاد بمصر للمسيحيين بواسطة الرومان قادت إلى

تشنت المسيحيين إلى المناطق البعيدة من قبضة الحكم الروماني. ونتيجة لذلك تكونت بمصر طبقة النساك الذين ضربوا في الصحراء وعاشوا معزولين من المناطق النيلية بمصر. والطبيعي أن يهربوا إلى بلاد النوبة، ولكن لم يظهر لهم وجود قوي أو أثر تاريخي عميق رغم أن الحفريات أظهرت وجود بعض صلبان بقبور بعض النوبة الذين عاشوا بين عامي ٤٠٠ - ٥٠٠ ميلادية. والذي لا شك فيه أن الأسقف (تيودروس) حول معبداً فرعونياً بفيله إلى كنيسة باسم القديس اسطفانوس في عام ٥٢٧ ميلادية.

المسيحية بنبته والمقره:

مناقشات اليعقوبيين التي بدأت بمؤتمر (نيقيه) تبعها مؤتمر فلسفي مناوئ له عقد في (خليقدون) في عام ٤٥١. هذا المؤتمر قاد إلى انشقاق الدين المسيحي بالإمبراطورية الرومية - أي البيزنطية - ووقف موقفاً مناوئاً لليعقوبيين الذين يرون أن المسيح له طبيعة واحدة. وبذلك أصبحت مصر مؤيدة لمبادئ أسقف أنطاكية يعقوب ومسيحيو القسطنطينية واليونان وما جاورها مؤيدين للمجمع المسكوني الذي عقد بخليقدون. أصبح من الطبيعي أن يقود هذا الخلاف الفلسفي الديني إلى منافسة في نشر الديانة المسيحية بشقيها.

في فيله المقدسة استطاع القائد الروماني (نرسيس) اعتقال كهنة معبد (ازيس) بعد أن طرد الملك (سلكو) وأكثر المؤيدين لديانته وهم من قبائل البجة.

الملك (يوستانيوس) المؤيد لمجمع خليقدون أرسل كهناً من مصر إلى مملكة نبته لنشر ديانته فيها، ولكن زوجته الملكة (تيودورا) التي نشأت

وترعرعت بمصر وأيدت اليعقوبيين، أسرعت بإرسال وفود من مصر في عام ٥٤٣م إلى مملكة نبتة بقيادة القس (يوليانوس) لكي يسبقوا وفود زوجها وينشروا مسيحية اليعقوبيين بينهم.

نجح مخطط الملكة واستقبلت نبتة كهان يعقوب بحفاوة وطردت كهان الإمبراطور (يوسانيوس) عندما قدموا. ولكن الأخيرين لم يرجعوا بل تقدموا إلى مملكة المقره فنشروا مسيحياتهم بها.

وعلى ما يبدو إن المسيحية في بداية عهدها بمملكة نبتة والمقره اتخذت شكلاً سياسياً، فقد استطاعت المجموعات المتناحرة في المنطقة من استغلالها لكسب التأييد العسكري. إننا نجد أن قبائل القرعان التي كانت تخضع لسلطة دولة المقره، قد ذهب زعمائها إلى الإمبراطور في القسطنطينية في عام ٥٦٨ طالبين منه تعلم الديانة المسيحية حسب معتقده. وفي عام ٥٧٣ وصل وفد من مملكة المقره حاملاً للإمبراطور الهدايا وطالبا منه عقد معاهدة معه.

المسيحية بعلمه:

نفس الدوافع السياسية قادت الملك (أرفيولا) ملك علمه إلى إرسال وفد إلى ملك نبتة طالبا منه إرسال الأسقف (لونجينوس) ليبلغ شعبه المسيحية. وقد استطاع ملك نبتة أن يقنع الأسقف الذي كان يسكن الإسكندرية من التوجه إلى علمه عن طريق تلال البحر الأحمر نظراً للعداء الذي كان بينه وبين مملكة المقره.

استطاع الأسقف (لونجينوس) من تلقين البلاط والأعيان والشعب في علمه معتقدات اليعقوبيين، وبالتالي أصبحت كنيسة علمه تابعة للبطركية القبطية الأرثوذكسية بالإسكندرية. واستطاع أيضاً هذا الأسقف أن يقضي

على حركة مسيحية صغيرة وجددها بعلمه وكان مبسروها من المسيحيين الحبش. وقد وصف هذه المجموعة بأنها حركة خيالية اعتقدت أن جسم المسيح منزه عن الأوجاع والآلام.

التنظيم الديني في الممالك النوبية:

الذي لا شك فيه أن المدة التي بقيتها المسيحية في الممالك الثلاث قد أكسبتها جذوراً وتنظيمات ثابتة. فقد نشأت كراسي أسقفية في كلابشه وأبريم وفرس وقورته بمملكة نبتة. بمملكة المقره كانت تلك الكراسي بدقلا العجوز وأبي حمد (شنقير)، وهناك ادعاء بوجود كرسيين آخرين بدار المحس. أما بمملكة علوه فإن الكرسي الوحيد كان بالعاصمة سوبا.

بطريرك الأقباط في الإسكندرية كان يعين أساقفة هذه الكراسي في نبتة وعلوه. أما بطريرك الروم بالإسكندرية أيضاً فقد كان يعين أساقفة المقره.

إن للربع الأخير من القرن السادس الميلادي الذي شهد بداية تحول المعابد الفرعونية بنبتة إلى معابد مسيحية لم يكن بعيداً عن غزو عمرو بن العاص إلى مصر في عام ٦٣٨ ميلادية. أي أن الفترة التي كان يمكن أن يحدث فيها تواصل بين النوبة ومصر المسيحية ومن خلفها بيزنطة (دولة الروم) لم تدم أكثر من نصف قرن.

إن انقطاع هذا الحبل السري بين مسيحية النوبة الناشئة ومصدر إشعاعها اليوناني قد أثر كثيراً في مستقبل المسيحية بالسودان. إن المسيحية بممالك النوبة لم تختلق مباشرة بالانقلاب الديني الذي حدث بمصر نتيجة الغزو الإسلامي، إلا أن تنظيمها الناشئ فقد عناصر أساسية وحيوية لتطوره.

عمرو بن العاص والنوبة:

من الطبيعي أن يستمر عمرو بن العاص - بعد فتحه مصر - في تأمين حدود مصر الجنوبية من تحرشات النوبة والبجة المستمرة على الأرياف المصرية، لذلك أرسل أخاه لأمه عقبة بن نافع الفهري في عام ٦٤١ ميلادية لاحتلال بلاد النوبة.

رماة الحدق:

دخلت القوات العربية إلى نبتة ناهبة لقرائها وتجمعاتها ولكنها بعد تقدم يسير وجدت أنها تعاني من مشقات مختلفة نتيجة عوامل عدة:

أولاً: عدم وجود تجمعات ضخمة في مكان واحد لخوض معارك حاسمة؛ فالقرى الكبيرة كانت صغيرة بالمقاييس المصرية أو مقاييس القبائل العربية. إن هذه القرى التي وجدوها كانت مثل دندق وأبريم وجبل أده وقسطل وغيرها من الناحية الشرقية للنيل، وديود وتلمس (كلايشه) وقورته وأبي سمبل وقرس وغيرها من الناحية الغربية للنيل، كانت متباعدة ومجموعاتها صغيرة وسهلة الحركة وتستطيع عبور النيل ببساطة شديدة بزوارقها الخفيفة. وهذا ما فقدته العرب في تكتيكهم الجربي تماماً.

ثانياً: هذه المجموعات لم يكن من السهل تجاوزها؛ لأنها تعمل على قطع الإمدادات من الخلف، في الزمن الذي كانت فيه أرضهم قاحلة لا تسمح بإمداد جيوش ضخمة غازية.

ثالثاً: كان الفارق في التدريب العربي والنوبي - وخصوصاً في مجال النبال النوبية الطويلة (طولها متران) - كبيراً جداً. إن النبال التي استعملها النوبة في صيدهم وحروبهم أتقنوا صناعتها واستعملوها. إن

العرب قد برعوا في استعمال السيوف في معاركهم، ولكن رغم استعمال العرب للنبال في حروب متعددة حتى ذلك الوقت ولكن النبال التي وجدوها بأرض النوبة كانت من نوع أكثر إتقاناً وأكثر طولاً وأرق نصالاً. سرعة النبال ودقة إنجازها جعلت السيف العربي قليل الفائدة. ولسوء حظ العرب فإن النوبة كانوا يرون أن العيون هي مكان الضعف في المقاتل، فتدربوا على رميها بدقة فأسماهم العرب (رماة الحدق).

معارك العرب والنوبة:

يتفق كل المؤرخين العرب مع الطبري (تاريخ الرسل والملوكة، مطبعة ليدن ١٨٧٩ - ١٩٠١) على أن أول حملة وجهها العرب إلى أرض نبتة - النوبة - كانت في عام ٦٤١ ميلادية بقيادة عقبة بن نافع الفهري.

هذه الحملة توغلت في أرض نبتة ولكنها فشلت في الاستيلاء الفعلي على أي أرض، فقد وجد عقبة أنه يواجه أرضاً وأناساً يختلفون عن أهل مصر، وأن ما يقوم به لا يزيد عن كونه حملة تأديبية لا تقود إلى احتلال ولا لنشر دين إسلامي ولا للحصول على أسلاب مادية، بل على العكس كانت تقود إلى أعمال انتقامية. ومن الناحية الأخرى كانت تكاليفها المادية والبشرية ضخمة ومردودها ليس ضعيفاً وإنما معدوماً.

إن العرب ذهّلوا لكثرة ضحاياهم كما شرح ذلك البلاذري ناقلاً قول شيخ حميري شهد معركتين مع النوبة من معارك عقبة فقال (وأنا أنقل من كتاب العالم الأب الدكتور فانتيني "تاريخ المسيحية" صفحة ٦٤): (شهدت النوبة مرتين في ولاية عمر بن الخطاب ٦٣٤-٦٤٤م فلم أر قوماً أشد بأساً منهم ولقد سمعت أحداً يقول للمسلم أين تحب أن أضع سهمي منك

فربما عبث الفتى منا فقال: في مكان كذا، فلا يخطئه. كانوا يكثرون الرمي بالنبل فما يكاد يرى من نبلهم على الأرض شيء، فخرجوا إليها ذات يوم فصادفونا ونحن نريد أن نجري حملة واحدة بالسيوف فما قدرنا على معالجتهم، ورمونا حتى ذهب الأعين فعدت مائة وخمسون عينا مفقوة).

الحرب في ولاية الخليفة عثمان بن عفان:

عندما ولي الخلافة عثمان بن عفان عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر وعين عوضاً عنه سعد بن أبي السرح في عام ٦٤٦ ميلادية. استمرت الحرب سجالاً بين العرب والنوبة في شكل حملات سنوية. في عام ٦٥٢ أرسل سعد بن أبي السرح أكبر حملة إلى أرض النوبة لقيت هزيمة منكرة، وهي المعركة التي فكت فيها عين القائد معاوية بن خديج، فأسمى العرب النوبة يومها (رماة الحدق).

بعد المعركة تيقن سعد بن أبي السرح أنه يقود في حروب خاسرة، عالية التكاليف المادية والبشرية وضعيفة المردود. حينها قرر مهادنة النوبة، فتوصل معهم إلى اتفاق هدنة لا جزية فيه. هذا الاتفاق اتخذ شكلاً محدداً ودقيقاً للتعامل بين العرب ودويلات النوبة باسم (البقط) وهي الكلمة اليونانية (باكت) وتعني الاتفاق.

أكبر حملات النوبة:

الذي اتفق عليه المؤرخون أن بين الحملات التي جردها المسلمون بمصر لغزو النوبة ثلاث حملات كانت كبيرة الأعداد لاحتلال أرض النوبة احتلالاً فعلياً.

الحملة الأولى هي التي قادها عقبة بن نافع الفهري في عام ٦٤١، عندما أرسله عمرو بن العاص في خلافة عمر بن الخطاب. هذه الحملة وصلت حتى الشلال الثاني ولقيت هزائم فادحة لم تتوقعها.

الحملة الثانية الضخمة كانت عام ٦٤٦ في ولاية سعد بن أبي السرح (عزل عمرو بن العاص في عام ٦٤٥م) في خلافة عثمان بن عفان، وهذه الحملة انتهت باتفاقية تنص على استيراد عبيد من أرض النوبة في مقابل البضائع التي يحتاجون إليها من مصر ولا ينتجونها بالنوبة. هذه الاتفاقية لم تكن دقيقة أو مفصلة فحاول العرب تفسيرها لصالحهم فألغوا النوبة.

الحملة الثالثة حدثت في عام ٦٥٢ عندما سار جيش عربي ضخم بقيادة سعد بن أبي السرح ووصل إلى مشارف دنقلا حيث لقيته قوات وصل عددها إلى مائة ألف مقاتل نوبي جمعوا من نبتة والمقره وعلوه. ضرب العرب دنقلا القوية التحصينات بالمنجنيق الذي لم يعرفه النوبة فتهدمت بعض منازلهم، ولكن ذلك لم يخفهم وأصابوا العرب إصابات هدت قواهم العسكرية وأدت إلى اتفاقية البقظ الثانية التي دامت أكثر من ستمائة عام.

اتفاقية البقظ:

١- نصت الاتفاقية على تعريف أرض النوبة بأنها الأرض التي تقع بين أسوان ومملكة علوه.

٢- أعطت الاتفاقية الأمان العربي للنوبة في أنهم لن يغيروا عليهم.

٣- أعطت الاتفاقية الجانبين الحق في عبور أرض الجانب الثاني في أمان وسلام.

٤- على كل جانب رد الهاربين من الجانب الثاني.

٥- لا يتعرض النوبة للمسلمين في دينهم أو في مسجدهم الذي بنوه في دنقلا، وعلى النوبة توفير الأمان لقاصديه ومصليه ونظافته وإنارتة ليلا.

٦- عدم إبقاء أي عدو للعرب بأرض النوبة وعدم تقديم أي مساعدة له، للهجوم على مصر.

٧- حددت الاتفاقية عملية مقايضة بين الجانبين، يقدم النوبة للعرب ثلاثمائة وستين عبداً من الرجال والنساء لا عيب فيهم وليسوا من العجائز أو الأطفال، وقيل أيضاً أن أربعين عبداً أضيفوا إلى العدد السابق يقدمون إلى والي مصر.

في مقابل ذلك على العرب أن يقدموا إلى النوبة ما يلي:

أ- ألف أردب قمح وللرسل ثلاثمائة أردب من الشعير.

ب- ألف قنينة من الخمر وللرسل ثلاثمائة.

ج- فرسين من خيول الأمانة.

د- مائة ثوب من القطن العادي.

هـ- أربعة أثواب (قباطي) للملك، ولرسله ثلاثة.

و- ثمانية أثواب بقطرية.

ز- خمسة أثواب من المعلمة.

ح- جبة مخمل للملك.

ط- عشرة قمصان بقطرية.

ي- عشرة اثواب (أحاصي) من القطن الخشن.

ومن الملاحظ أن عطاء الخمر قد يكون مستهجنًا بالنسبة إلى المسلمين، ورغم استنكار الخليفة عبد العزيز بن مروان له، إلا أنه استمر يقدم إلى النوبة. لم يجد ولاية مصر صعوبة في الحصول على الخمر لأن أقباط مصر الذين فضلوا الجزية على الإسلام كانوا ينتجونها ومن السهل أن يقوموا بإرسالها إلى إخوانهم المسيحيين بالنوبة.

بالإضافة إلى استهجان الخمر فإن بعض المؤرخين يشكون في وجود مسجد في ذلك الحين بدقلا، وكان موضوع المسجد قد ذكره المقريزي في كتاب (المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار - ١٩٢٧ القاهرة، ٣ مجلدات).

شروط إلغاء البقط:

الشروط الملغية للعهد هي:

- ١- إذا أوى النوبة عبداً هارباً من مسلم.
- ٢- إذا قُتل النوبة مسلماً.
- ٣- إذا هدم النوبة مسجداً بناه المسلمون.
- ٤- إذا امتنع النوبة عن المقايضة بإرسال العبيد المتفق عليهم.

اتحاد مملكتي الشمال:

سعى بطريرك الأقباط اسحق (٦٨٦-٦٨٩) إلى جمع دول النوبة في

دولة واحدة تلقى تأييدا سياسيا من أقباط مصر. وقيل إنه كان يبعث بالرسائل لهذه الدويلات حاثا لها على الاتحاد. ورغم نجاحه في زرع الفكرة، إلا أن حكام مصر من العرب تنبهوا إلى خطورة هذا الاتحاد من الناحية العسكرية، فمنعوا البطريك من الاتصال بدول النوبة. ولكن على ما يبدو أن الفكرة وجدت قبولا من دولتي نبتة والمقره رغم الاختلاف الديني بين الدولتين، وكان يقود في الماضي إلى تحرشات. أما بالنسبة إلى أقباط مصر فإنهم لم يساندوا هذا الاتحاد عسكريا أو سياسيا وإنما بقيت عواطفهم الدينية فقط مع إخوانهم في الجنوب.

إن فكرة الاتحاد لم تكتسب شكلا عمليا إلا في بداية القرن الثامن الميلادي عندما أصبح الملك (مرفوريوس ٦٩٧-٧٤٤) ملك دنقلا، ملكا على المقره ونبتة، وأصبح على دولة نبتة وال يسمى الأبرخص ومقره في فرس. ملك الدولتين تم الاتفاق على أن يكون مقره مدينة دنقلا.

من الأشياء التي ساعدت على هذا الاتحاد طرد العرب لبطريك الروم - الممثل للكنيسة اليونانية بالإسكندرية - بين عامي ٦٣٦ - ٧٣١ ميلادية. فقد أثر طرده في تخفيف حدة الخلاف الديني بين المملكتين. فبطرد البطريك الروماني من الإسكندرية، انتقلت عملية تعيين الكراسي الأسقفية بالمملكتين إلى بطريك الكنيسة القبطية الأرثوذكسية بالإسكندرية.

من الطبيعي أن يكون أول المنشئين للدول أكثرهم عملا. ففي عهد الملك مرفوريوس (٦٩٧ - ٧٤٤) تم توحيد النوبة على قواعد من العدل والتقسيم الإداري المعقول. كما في عهده أصبحت جميع المقرة المتحدة تابعة للكنيسة القبطية المصرية، وبالتالي انتهجوا نفس دين مملكة علوه فأصبحت جميع أرض النوبة على دين واحد. ورغم كل هذا التدين فالملك

كان يحكم بحجة أن تاج الملك قد نزل عليه من السماء، وأنه حاكم بأمر الله، ورعاياه عبيد له يعملون في الأرض التي لا يملكونها بل يملكها الملك. وقد ظهر ذلك جلياً في النزاع الذي حدث بالأراضي التي امتلكها بعض النوبة بأسوان. فعندما باع هؤلاء النوبة تلك الأرض للمسلمين، احتج الملك بأنهم لا يملكون حق بيعها وإنما العمل فيها فقط.

هذا وقد فشل القضاة المسلمون بأسوان عندما وصلت القضية إلى الخلافة في دمشق ووجهتهم الأخيرة بالنظر فيها. حكم القضاة بجواز البيع لأن القانون الإسلامي الذي تخضع له أسوان لا يقر الإقطاع المبني على مالك للأرض بمجرد أنه ملك، ومن يملك الأرض فعلاً ويزرعها عبد ليس له حق التصرف فيها.

ملك دنقلا الناسك:

الملك زكريا الذي كان من المفترض أن يخلف والده، كان ناسكاً. فعندما خلف زكريا والده مرقوريوس في عام ٧٤٤ رفض أن يتولى الحكم بنفسه، وجعل يعين الملوك الذي يحكمون نيابة عنه. عين أولاً الملك سيمون الذي سار على رسيم الملك السابق الصالح ولكنه مات. فعين زكريا ملكاً آخر من المحاربين بالقصر يدعى إبراهيم، فدخل في نزاعات مع رجال الدين وانتهى به المطاف منفياً في جزيرة بالنيل. فعين بعد ذلك زكريا ملكاً ثالثاً يدعى مركوس قتله بعد ستة أشهر أنصار إبراهيم داخل الكنيسة وهو يصلي. وأخيراً عين زكريا ملكاً رابعاً يدعى قرياقوس. كل ذلك في أربع سنوات تقريباً فقط.

ضعفت الخلافة الأموية وقاربت التلاشي، وعلى ما يبدو أن والي مصر عبد الملك شعر بضعف قوته فأراد التخلص من أي مقاومة قد يقدم عليها أقباط مصر؛ لذا قام باعتقال رأس الكنيسة القبطية الأرثوذكسية المصرية الذي مقره الإسكندرية. والجدير بالذكر أن هذا البطريرك هو الذي يعين مطران الكنيسة النوبية، الذي بدوره يعين الأساقفة المحليين وبقية كهنته. لذا أرسل ملك النوبة حاكم المناطق الحدودية (الأبرخص) لكي يطلب من والي مصر إطلاق سراح البطريرك. كل الذي فعله والي العربي هو أن ألقى بالأبرخص أيضاً في السجن.

فتقدم الملك النوبي (قرياقوس) بجيش قوامه مائة ألف فارس ومائة ألف هجان ودخل صعيد مصر سابياً للمسلمين، وناهباً لثرواتهم إلى أن وصل إلى بركة الحبش.

كان على والي مصر أن يحارب الملك النوبي، ولكن ضعف موقفه السياسي والعسكري جعله يعقد اتفاقاً مع الأبرخص المسجون عنده، بأن يرجع ملك النوبة وقواته في مقابل إطلاق سراح البطريرك. وافق الأبرخص وفيما بعد الملك على الرجوع إلى أرضه بدنقلا. تبع هذه الحملة توقف الملك النوبي عن تقديم البقط لمدة عشر سنوات.

بعد الحملة بعامين تم الانقلاب الذي أبدل الحكم الأموي في دمشق بحكم عباسي في بغداد في عام ٧٥٠ ميلادية.

طالب والي مصر العباسي موسى بن كعب في عام ٧٥٨ ميلادية لأول مرة من الملك النوبي معاودة تقديم البقط، فوافق الملك.

المسلمون بأرض النوبة:

على ما يبدو أن القوة التي شعر بها المسلمون بعد قيام الدولة العباسية وزوال الضعف الذي منيت به نهاية الحكم الأموي، شجعت المسلمين على الدخول إلى أرض النوبة بأعداد أوفر، لزراعة الأراضي التي اشتروها من النوبة وعجز ملك النوبة من استردادها بحجة أن من باعوها ليسوا إلا عبيدا يعملون في أرضه. كما تدفقت أعداد هائلة أخرى من الأمويين الفارين من البطش العباسي، وغيرهم من المستثمرين المنقبين عن الذهب.

هذه الهجرة مكنت الخليفة في بغداد من اعتبار الأرض التي تقع بين جبال البحر الأحمر وأسوان تابعة له. ولكي يأمن شر البجة ويقبلوا بهذا الضم النظري، قدم لهم حق المخافرة، وهو خمس الذهب المستخرج. ولكن رغم هذا لم تتوقف غزوات البجة لجنوب مصر بغرض النهب.

الخليفة المأمون الذي دام حكمه عشرين عاما ابتداء من عام ٨١٣ ميلادية، أمر واليه على مصر (عبد الله بن الجهم) أن يحارب البجة. قاتلهم الوالي وهزمهم وفرض عليهم بقطا أهم نقاطه حماية مسجد المسلمين في هجر ومسجدهم في سنكات. ولكن هذا الاتفاق لم يدم طويلا.

حملة العباسيين الثانية على البجة:

لم يدم الاتفاق الأول بين البجة والوالي مصر طويلا، فقد زاد عدد المسلمين المنقبين عن الذهب، فقام البجة بطردهم وسب دينهم وتحطيم مسجدهم في هجر وسنكات.

أرسل الخليفة جعفر في عام ٨٥١ ميلادية أحد مواليه - ويدعى

محمد عبد الله القمي - على رأس جيش كونه بمساعدة والي مصر .
الجيش يتكون من الفرسان والهجانة برا عن طريق أسوان، وتساعد سفن
إمداد من ميناء عيذاب بالبحر الأحمر .

استطاع ملك البجة - علي بابا - من مراوغة الجيش الإسلامي
مراوغة طويلة، وذلك بالانسحاب كلما اقترب العرب، ولكن في النهاية
تمكن العرب من هزيمته. وقيل إن علي بابا تم القبض عليه مع الملك
قرقي - ملك دنقلا - الذي أتى لمساعدته. وقيل إنهما أخذاً إلى بغداد فعفا
عنهما الخليفة

الجدير بالذكر أن الملك قرقي كان أول نوبي يدخل بلاد العرب في
مهمة رسمية ويصل إلى بغداد. فيومها طالب الخليفة المعتصم في عام
٨٣٣ ببط أربع عشرة سنة متأخرة من ملك دنقلا. ونظرا لصعوبة
المطلب أرسل ملك النوبة ابنه قرقي إلى الخليفة عن طريق مصر. قابل
قرقي الخليفة في بغداد وتوصلا إلى اتفاق بالتنازل عن البقط السابق،
وتخفيض البقط اللاحق بأن يكون كل ثلاث سنوات بعد أن كان سنويا.
وقد لقي قرقي حينها حفاوة كبيرة من الخليفة.

ازدياد المنقبين:

ازداد بعد تلك المعركة المنقبون عن الذهب من العرب. ولكن أكبر
عدد منهم كان تابعا لقاض يدعى عبد الرحمن عبد الحميد العمري الذي
كانت قافلة إمداداته تصل إلى ستين ألف حمار .

رغم أن العمري عاش بين البجة دون منازعة أو مناوشة، إلا أن ملك
النوبة شعر بخطورة تكاثر رجاله فأرسل إليه ابنه الأول في قوات
انهزمت، تلاها بقوات أخرى يقودها ابن أخيه (نيوتي) ولكن الأخير انضم

إلى العمري. أخيراً أرسل إليه ابنه زكريا، الذي بعد مؤامرات متعددة استطاع هزيمته. هرب العمري وتفرقت قواته فقتله بعض جنوده وهو في طريقه إلى مصر. حمل القتلة رأس العمري إلى الأمير أحمد بن طولون معتقدين أنه سيسر لذلك، ولكنه قتلهم.

الأعاجم في حكم مصر:

إن وصول ابن طولون إلى الحكم في مصر كان نتاجاً لضعف الدولة العباسية، فبدخول الأعاجم إلى سدة الحكم والجيش، قويت شوكتهم وضعفت العناصر العربية في حكم الدولة الإسلامية.

في عهد ابن طولون بمصر أصبح حكامها من العجم الأتراك والنوبة المرتزقة والعبيد. وفي عهده وصل النوبة في جيشه أربعين ألف مقاتل، يقودهم ابنه خمارويه. وبالتالي شعر النوبة بالأمان في بلادهم أكثر من أي وقت آخر سابق. ومهما قيل فإن النوبة في جيش مصر دخلوا في نزاعات مع القوات الأخرى التي كانت تهاجمهم.

ومن جانب النوبة فإن حملاتهم على أرض مصر لم تتوقف. كما أن العداء الذي بدأ يشعر به العرب نحو الأعاجم والموالي بمصر جعلهم يبحثون عن مناطق أخرى للهجرة. كان المنفذ الوحيد لديهم هو أرض النوبة وصحاري السودان. قاد كل هذا إلى حملات من حكام مصر على النوبة، وكان جنودها من النوبة العاملين بمصر والأتراك.

غزا أبو منصور تكين التركي - إبان فترة ولايته الأولى على مصر بين عامي ٩١٠ و ٩١٥ - النوبة، فقابله الأمير زكريا وهزمه على حدود بلاده.

عندما توفي الملك قرقي خلفه ابنه زكريا (الثالث) الذي في عهده احتل النوبة في عام ٩٥١ ميلادية الواحات الغربية وبعض مناطق الصعيد حتى أحميم.

في عام ٩٥٦ ميلادية زحف النوبة على أسوان ودمروا كثيرا منها واستولوا على تجارة أسواقها، مما حمل كافور الإخشيدي والي مصر (٩٤٦-٩٦٨) لحربهم ولكن دون الدخول إلى أرضهم.

هدنة مائة عام مع النوبة:

بعد عودة زكريا الثالث بن قرقي من حربته مع كافور الإخشيدي توفي وتولى الحكم بعده ابنه قرقي (وهو الاسم النوبي لجورج وكان العرب يسمونه جرجه) في عام ٩٦٨ تقريبا. ولكن العام الذي تلى ذلك شهد انهيار الحكم في مصر واستيلاء الفاطميين الشيعة على الحكم فيها.

إن موقف الفاطميين كان عصيبا بعض الشيء لسببين:

أولاً: العداء للأنظمة السنية في العالم العربي والتي كانوا يفكرون في الانقضاض عليها وإبدال الحكم بها.

ثانياً: توجسهم من أوربا كان كبيراً. كانوا يتوقعون هجوماً عليهم منهم، أو على الأقل أن يوقفوا إمدادهم بالأخشاب التي يريدونها لصناعة سفن أسطولهم.

بعد أن أرسى جوهر الصقلي قواعد حكمه الجديد بمصر، أراد ضمان حدوده الجنوبية، وضمان إمداد مستمر بجنود النوبة، لكي يحلوا محل الأتراك والعرب بالجيش المصري. فأرسل من عاصمته التي خطها - القاهرة - سفيرا يدعى سليم الأسواني لعقد معاهدة مع ملك دنقلا قرقي بن زكريا.

بعد أن عرض السفير سليم على ملك دنقلا الإسلام، وعرض ملك دنقلا المسيحية على السفير الفاطمي، توصلا إلى اتفاق يرضي كل طرف فيه بدين الثاني، ويحافظ على السلام بين الدولتين.

استمرت هذه الاتفاقية سارية المفعول بين الجانبين طوال فترة الحكم الفاطمي لمصر والذي استمر قرابة القرنين. وعلى ما يبدو أن رحلات سليم الأسواني التالية إلى علوه وأرض البجة كانت لنفس الغرض.

هذا السلام انعكس خيرا على أرض دنقلا، فانتعشت التجارة بين الدولتين، واستقر المزارعون في زراعة أراضيهم بالقمح والشعير والدخن واللوبيا والنخيل والكروم والزيتون. ونظرا لقلة الأرض فقد زرعوها شتاء ثم سمدوها بالسماد الحيواني والطيني وزرعوها صيفا. استعملوا للحرث الأبقار، ورفعوا المياه إلى أرضهم بالسواقي.

نسبة إلى الحرص الشديد الذي كانت تتخذه دولة دنقلا في عدم إدخال العرب إليها، فقد فرض الأمر خص مراقبة وتفتيشا دقيقين على كل من يتعدى الحدود المصرية عند مسجد الرديني بعد حصن جزيرة فيله. فبعد ذلك تبدأ أرض النوبة بقرية تسمى القصر.

التجارة بين الحدود كانت مزدهرة، ويقوم بها المسلمون والنوبة ويستعملون عملات نقدية ومقايضة. أما إلى الجنوب فلم يسمح لغير النوبة بالدخول خوفا من الهجرة والتجسس، لكن التجارة المتبعة كانت مقايضة.

الهجرات العربية:

أصبح جليا أن الطريق السهل لهجرة العرب إلى السودان هي طريق أرض البجة، حيث التفتيح عن الذهب والمعادن وسهولة الدخول عن

طريق الموانئ البحرية والصحراء. كما أن البجة لم يفرضوا قيوداً مشددة على الهجرة. لذلك استقرت في أرض البجة قبائل عربية أهمها ربيعه التي تزوجت معهم. ومع ربيعه بدأت الثقافة العربية في بذر نباتاتها الأولى في أرض وثنية لا تتبع ديناً سماوياً. بالإضافة إلى ذلك، فإن الوحدة القديمة تحت سلطة ملك واحد مقره هجر قد تلاشت. تفرقت البجة إلى بطون، على كل بطن شيخ. والشيخ نفسه مع قومه يحتكم إلى كاهن يستمد وحيه من شيطان يقرأ عليه حوادث المستقبل.

في مملكة علوه كان الموقف مختلفاً جداً. فهذه المملكة كانت منبعاً للقوى، واسعة الأرض الصالحة للزراعة، وامتلكت سواقي لرفع المياه إلى مزارعها. هذه الدولة لم تتأثر بشكل مباشر بالحروب مع الجارة الطامعة مصر. سمح ملوك سوبا للمسلمين بالقدوم إلى مملكتهم للاستفسار عن مناسيب النيل، أو سكان المملكة أو الزيارة. لذلك تمكن الرحالة ابن حوقل وسفير الفاطميين سليم الأسواني من القيام بزيارات وخصوصاً للعاصمة سوبا ورأوا بناياتها وكنائسها المتعددة، وشراء أرضها، وطاعة سكانها لملوكهم. كما وجدوا أيضاً في ذلك الوقت - النصف الثاني من القرن العاشر - حياً للمسلمين. ولكن سوبا القوية البعيدة عن النفوذ الإسلامي لم تمكن واحداً من المسلمين من تكوين جيش أو حتى الزواج بأهلها المسيحيين، الذين بلغت كنائسهم في جميع المملكة أربعمائة كنيسة. إن ابن حوقل استطاع حضور اعتلاء الملك اسطابنوس بن يركي عرش علوه عندما توفي خاله (أوسابيوس كرجوه بن جوتي) الذي والدته أخت ملك دنقلا. من هذا يصبح جلياً أن أبناء الأخت - دون الأبناء - يرثون الملك.

الجزء الشمالي من هذه المملكة - أي الأبواب - حكمه والي خاضع لسلطة الملك. وقد تعاون هذا الوالي مع الفاطميين على إرجاع الهاربين

من سلطتهم.. وهذا قاد إلى هدوء سياسي في المنطقة، الشيء الذي وفر حرية كبيرة لتجارهم مع الخارج التي تخصصوا فيها.

تدهور العلاقة بين النوبة ومصر:

اشتداد الحملات الصليبية على مصر قادت نور الدين الزنكي حاكم سوريا، إلى إرسال جيش كردي لمساعدة مصر. صلاح الدين الأيوبي الذي كان أحد كبار ضباط هذا الجيش عينه الملك الفاطمي - العاضد بالله - وزيرا له في عام ١١٦٩ ميلادية. ولعل تطلع صلاح الدين للاستيلاء على الحكم قاده إلى نزاع مع مؤتمر الخلافة المسئول عن القصر الملكي، وكان نوبيا. أدى ذلك الخلاف إلى قتل مؤتمر الخلافة في منتجعه في قرية الخرقانية في السابع من يوليو عام ١١٧٣ ميلادية.

هذه الحادثة قادت إلى ثورة النوبة بجيش الملك. وقد استطاعت قوات صلاح الدين من القضاء عليها بواسطة قوات أخيه فخر الدولة توران شاه، الذي جاء لمساعدة أخيه صلاح الدين. الملك الفاطمي الشيعي الذي كان النوبة يدافعون عنه - لما رأى انهزامهم - انضم إلى صلاح الدين الأيوبي السني ضد النوبة. ولكن الملك مات سريعا، أو دبر قتله واستولى صلاح الدين على الحكم وأصبح سلطانا على مصر.

أول معركة بين الأيوبيين والنوبة:

تقدم النوبة من دنقلا لمساندة الملك الفاطمي ووصلوا إلى أسوان في أعداد كبيرة استطاعت احتلالها، واحتلال المنطقة وقراها، فهرب حاكمها كنز الدولة إلى القاهرة طالبا مساعدة الملك الأيوبي.

أرسل الملك الأيوبي قوة بقيادة الشجاع البعلبكي وتبعه كنز الدولة.

عندما وصل الجيش إلى أسوان وجد أن الجيش النوبي استولى على الصعيد، فذهب إليه هناك ودارت معركة طاحنة تراجع بعدها الشجاع إلى القاهرة منهزماً.

صلاح الدين يرسل أخاه إلى النوبة:

أرسل صلاح الدين هذه المرة أخاه توران شاه في أواخر عام ١١٧٣ ميلادية، على رأس جيش كبير من الأتراك، تبعته قافلة نيابة ضخمة تحمل الرجال والأغذية.

عندما وصل الجيش إلى أبريم بأرض النوبة، دارت حرب بينهما استمرت ثلاثة أيام، انتصر فيها توران شاه على الأبرخص ممثل ملك النوبة. وقد استطاع توران تغنيم أبريم وخلص بعض الأسرى الذين قبضهم النوبة من جيش الشجاع البعلبكي المهزوم.

إن هزيمة النوبة التي استطاع توران شاه الوصول إليها بعد معارك أيام ثلاثة، كان مردها إلى حداثة الأسلحة التي جاءت بها القوات التركية، في حين أن المقاومة العنيفة التي قابلهم بها النوبة كانت بالنشأ الذي حاربوا به منذ ألف عام ولم يطوروا غيره.

إن توران شاه بعد احتلاله للمدينة قام بتخريبها، ورفع الأذان من سقف كنيسة أبريم.

لم يستطع التقدم أكثر من ذلك، فعين إبراهيم الكردي حاكماً لأبريم مع قوة من الأتراك. بقي هذا الكردي وجيشه يعيش على نهب القرى في نواحي دندان وفرس، وقد استطاع النوبة قتله ومجموعة كانت تسبح معه بالنيل، فانسحبت بقية قواته إلى القاهرة.

بداية النهاية لمملكة دنقلا:

عاد النوبة إلى أبريم، وقد حاول الملك التصالح مع الأيوبيين ولكنه فشل.

وعلى ما يبدو أن مملكة دنقلا عشيها القدم، وهدتها الحروب، وتسلب عليها التخلف نتيجة التطور الذي حدث للأسلحة وغيرها بالعالم وبأرض مصر. كما انقطع التواصل بينها وبين المسيحية الأوربية وعاشت تفصلها الصحاري الشواسع عن الإشعاعات الحضارية في العالم.

بالإضافة إلى كل ذلك فأرضها فقيرة الإنتاج النباتي والحيواني، هربت الدولة إلى حد لم تستطع فيه السيطرة على أراضيها الشاسعة مثل دار فور ومناطق الزغاوة وفروعها.

عاشت دنقلا خلال الحكم الفاطمي على تصدير المقاتلين إلى جيوش الشيعة في مصر. وعندما ذهب الشيعة وأتى الأيوبيون انقطع حتى مردود هذه الهجرة.

المماليك يدخلون سواكن:

في عام ١٢٦٠ ميلادية استولى مملوك من العسكر على عرش مصر اسمه الظاهر بيبرس وعين نفسه سلطانا عليها.

في عام ١٢٦٤ أصبح جليا أن والي سواكن يصادر أموال التجار المتوفين بها. أرسل إليه السلطان بيبرس والي قوص علاء الدين الخازندار على رأس قوة لمحاربته. ذهب هذا القائد على أربعين مركبا من ميناء عيذاب إلى سواكن، وهزم واليها عالم الدين الأسبعاني واحتل الميناء.

الملك داؤد يغزو عيذاب وأسوان:

الملك داؤد الأول ملك دنقلا غزا في عام ١٢٧٥ ميلادية ميناء عيذاب واستولى على أموال كثيرة منه، ثم غزا مناطق أسوان ونهب أسواقها وحرق سواقها.

انتقم السلطان في القاهرة بأن أرسل علاء الدين الخازندار لملاحقة الملك النوبي. لم يلحق الخازندار به ولكنه استطاع قبض عليه وجماعته من قومه وأحضرهم إلى السلطان الذي أمر بنشر جزوعهم بالمنشار.

الظاهر يرسل جيشا لاحتلال النوبة:

في ٢٠ يناير ١٢٧٦ ميلادية تحركت قوات يدعمها العربان للقضاء على الملك داؤد الثاني الذي استولى على الحكم بعد موت والده داؤد الأول، بدلا مما كان معمولا به بأن يتولى الملك ابن الأخت الأمير شكندة.

هرب شكندة إلى مصر، وعاد مع هذا الجيش موعودا من قبل السلطان بتتصيبه ملكا. كان هذا الجيش بقيادة الأمير عز الدين أيبك الأقرم. يساعد هذا الأمير عدد من الأمراء.

عندما دخل هذا الجيش إلى بلاد النوبة - التي بدأ المؤرخون يطلقون عليها بلاد السودان - جعل يقذف السكان بقاذفات اللهب التركية ويقتل كل من يلقاه.

عندما وصل إلى قلعة الدر هزم والي المنطقة التي أسميت بأرض الجبل، واسمه قمر الدولة كشي، وكان ملك النوبة قد عينه واليا بعد أن أعدم الظاهر بيبرس سلفه نشرًا.

هرب الوالي قمر الدولة، فقام الجيش بقتل السكان وسبيهم. واستمروا في سبيهم وحرقتهم للقرى وقتلهم للسكان. التقوا بملك النوبة داؤد الثاني فهزموه، وقبضوا على أخيه وعلى أمه، وأخته.

استطاع الملك الهرب إلى الأبواب مع ولده حيث قبض عليهما والي الأبواب إدوار وأرسلهما إلى السلطان في القاهرة حيث سجنوا في قلعة الجبل.

شروط تنصيب شكندة ملكا:

جيش المماليك المنتصر فرض شروطا على اعتلاء شكندة إلى الحكم، أهمها:

١- يرسل شكندة إلى سلطان مصر سنويا ألفيلا ثلاثة ومثلها من الزراف، وخمسة فهود إناث ومائة من الخيول القوية، وأربعمائة من الأبقار الحلوب.

٢- أن يقسم ريع الدولة إلى قسمين، قسم للسلطان، والنصف الآخر لاحتياجات مملكة دنقلا والدفاع عنها.

٣- أن يصبح الربيع الأول من مملكة النوبة تابعا لمصر، لقربه من أسوان، ويأخذ السلطان منتجاته الزراعية من أقطان وتمر، مع أي ضرائب أخرى كانت مستحقة أو كان السكان يدفعونها سابقا للسلطان.

٤- فرض جزية عليهم لرفضهم الاسلام، مقدارها دينار على كل مسيحي بالغ في كل المملكة كل عام.

٥- أن تصادر جميع ممتلكات الملك داؤد الثاني وأهله وجميع من قتل من

السكان وتورد إلى السلطان بالقاهرة.

٦- لا يترك الملك العربان يستقرون بمملكته، وأن يسلم من يقبض عليه إلى الباب السلطاني.

٧- يعادي الملك كل أعداء السلطان ويوالي من والاه.

٨- يقبل ملك دنقلا أن يكون نائبا عن سلطان القاهرة في بلاده.

قبل الملك المنصب بهذه الشروط وأقسم على التنفيذ والولاء للسلطان. كما أقسم عليها رجال الدولة. هذا وقد حمل السكان على القسم بطاعة الملك شكده طالما كان مطيعا للسلطان. وأن يرفعوا للملك الأخبار وأن يتصلوا بالسلطان إذا خالف الملك المصلحة والطاعة.

ثم عين خمس عشرة نقطة استراتيجية وضع عليها جنودا لحراستها، واقطع أراضيها لواحد من أهل الملك شكده.

عاد جيش الأفرم إلى مصر، بعد سبعة عشر يوما قضاهما في دنقلا وذلك في ١٢ مايو ١٢٧٦، أخذين معهم أخا الملك داود الثاني والأسرى.

ما بعد الهزيمة:

١- بهذا الاتفاق قبل النوبة أن تكون مملكتهم مستعمرة لمصر.

٢- بيع الأسرى النوبة عبيدا بأرخص الأسعار نسبة لكثرة من أسر.

٣- نهىوا جميع ممتلكات البلاد بما فيها ما وجد في الكنائس من نفائس وذهب وفضة. من كنيسة (يسوع) وحدها بدنقلا أخذوا ذهبا قيمته سبعة آلاف دينار، ومن الفضة ما قيمته ثمانمائة ألف

دينار. وهذا مال كثير عند تقييمه آنذاك. فمثلاً تمكن مقارنة ذلك بسعر الأسير الذي بيع بثلاثة دراهم كما قال ابن دقماق.

٤-نسبة لكثرة السلب والنهب والضرائب التي فرضوها على السكان، فقد طلب السلطان من وزيره القبطي بهاء الدين بن حنا أن يعين عمالاً لاستلام خراج مملكة دنقلا.

٥-السكان في مملكة دنقلا بدأوا الدخول في الإسلام للتخلص من الجزية التي فرضت عليهم.

٦-فقدت البلاد كل مالها، وكثيراً من أبنائها، فانخفض الإنتاج بجميع أنواعه واضمحلت التجارة والقوة الضاربة لجيش الملك.

اغتيال الملك شكندة:

ملك شكندة أقل من عام واحد، عندما أرسل السلطان الظاهر بيبرس رجلاً نوبياً يدعى سلامة الإسماعيلي لاغتيال الملك النوبي، وقد استطاع سلامة عن طريق آخر من الغدر بالملك وقتله. إن مصر قامت بذلك عندما شعرت أن الملك النوبي قد لا يدوم ولاؤه طويلاً.

الملك برك:

في عام ١٢٧٧ ميلادية تم تتويج (برك) وهو ابن أخت الملك المقتول شكندة، ملكاً بعده، وذلك إبان عهد السلطان قلاوون. ولكن قلاوون سرعان ما قرر قتل الملك برك، فأرسل اليه الأمير علم الدين سنجر المسروري في قوة عسكرية قتلته، وولت بعده شمامون النوبي في عام ١٢٧٨ ميلادية.

غزوات المماليك على شمامون:

قبل شمامون الشروط التي فرضت أولا على الملك شكنده، ولكن نظرا لاستحالتها لم يلتزم بها، فأرسل إليه السلطان جيشا كبيرا بقيادة الأمير علم الدين المسروري، والأمير عز الدين الكوراني. بالإضافة إلى الجنود ضم الجيش أقواما من العربان. عندما اقترب هذا الجيش من المريس انسحب الوالي - نائب الملك - المسمى جريس، إلى دنقلا على مراحل حسب تحرك الجيش الغازي. أخيرا اجتمع الملك وابن عمه جريس ووقفوا لحرب المماليك.

وكما حدث في السابق فإن الأسلحة الحديثة عند جيش المماليك استطاعت هزيمة الملك شمامون وقومه. أخيرا استطاع شمامون الهرب إلى جزيرة مقرات.

جريس الذي تمكن من الهرب أيضا استطاع المماليك اللحاق به بعد مطاردة أسبوعين. أحضر المماليك جريس إلى دنقلا حيث توصلوا معه إلى اتفاق. عينوا ابن أخت شمامون ملكا وجريس نائبا له. ثم رجع علم الدين المسروري وجيشه بعد أخذ التعهدات بالولاء واحترام الاتفاقات السابقة، آخذين معهم كل شيء من الخيل والجمال والأقمشة القطنية والأسرى الذي استرقوهم.

سريعا عاد شمامون من جزيرة مقرات وهزم حامية السلطان بدنقلا وهزم الملك ونائبه فهربا إلى مصر واستولى على الحكم.

قلاوون يرسل الأفرم:

أرسل السلطان قلاوون جيشا قويا تعداده أربعون ألف مقاتل حديث

التسليح بقيادة قائده السابق الأمير عز الدين الأفرم. تبعت هذا الجيش خمسمائة مركب، وكالعادة أحضر هذا الجيش معه الملك الهارب ونائبه. ولكن الملك الهارب توفي وهو في أسوان فعين قلاوون أميراً نوبيا يدعى بودمه، وهو ابن أخت الملك داود بدلاً عنه.

استقبلت أرض نبتة القديمة جيش المماليك بالولاء، فعين الأفرم جريس والياً على المنطقة.

تقدم الجيش إلى دنقلا ولكنه وجد الطريق قد أخلى من السكان والممتلكات. سار الجيش في أرض خالية إلا من زروع وبعض الذين تخفوا. قتل الأفرم المتخلفين وترك خيوله ترعى الزروع.

عندما وصلوا إلى دنقلا في أواخر عام ١٢٨٩ ميلادية وجدوا أن شمامون أخلى المدينة وهرب إلى جزيرة مقرات.

أوقف الأفرم مراكبه في دنقلا وسار هو وجيشه إلى جزيرة مقرات حيث استسلم له القادة والأمراء ورجال الكنيسة وهرب الملك شمامون مرة أخرى.

رجع جيش الأفرم إلى دنقلا ونصب الملك بودمه ملكاً بالشروط القديمة ثم عاد إلى القاهرة فوصلها في مايو عام ١٢٩٠ ميلادية، أي بعد ستة أشهر من مغادرته لها. وبالطبع رجع حاملاً معه كل ما استطاع نهبه من المتاع والبشر.

شمامون يعود:

رجع سريعاً شمامون إلى دنقلا ليلاً، فجمع عساكره القدامى وقبض على الملك ومن بعده نائبه جريس.

طرد شمامون حامية المماليك في دنقلا التي كان يقودها ركن الدين العزي. ثم أتى بالملك بودمه وعراه من ثيابه وربطه بسيور ثور حديث الذبح، فجفت فيه وقتلته. كذلك قتل نائبه.

عندما وصل الخبر إلى السلطان قلاوون لم يستطع أن يفعل شيئاً نسبة إلى ازدياد نفوذ الصليبيين في عكا وفلسطين. في نفس العام توفي قلاوون ونصب ابنه خليل الأشرف سلطاناً على مصر.

عهد الأشرف وضعف النوبة:

إبان عهد الأشرف كما يبدو انشغلت مصر بالصليبيين، والنوبة ببلاذهم المخربة المضمحلة. وقد زاد الاضمحلال بعد موت شمامون (بين عامي ١٢٩٤-١٢٩٦ ميلادية) ويقال إن ملكاً أو ملوكاً حكموا بعده، وقد اختلف المؤرخون حتى في أسمائهم. ولكن الشيء الذي لا شك فيه أن نفوذ المماليك والعرب الذين تزوجوا بالنوبة قد مكنتهم من فرض نفوذهم على البيوت الحاكمة. وخصوصاً أن مكانة المرأة النوبية قبل وبعد المسيحية وخلالها كانت مكانة كبيرة أعطتها حتى حق التدخل في الحكم، والوصول إلى العرش هو من حق ابن الأخت.

إن الشيء الذي يمكن تسجيله بشيء من الدقة في تلك الفترة هو إرسال السلطان في مصر لجيش قوامه المماليك وتتر مصر والأعراب، تقدم هذا الجيش إلى دنقلا لمناصرة ملك من ملوكها، وكان بقيادة سيف الدين طقصبا والي قوص. لقي هذا الجيش الأمرين فلم يجد ما يقتات به وما ينهيه بأرض النوبة ورجع بعد تسعة أشهر دون أن يحقق شيئاً.

شيء آخر كان له تأثير كبير في انحطاط مملكة دنقلا وهو النزاعات التي نشأت بينهم وملك الأبواب الذي نصب نفسه شرطياً للقضاء على

الهاربيين من سلطان مصر وإرسالهم إليه. وبازدياد ضعف دنقلا استطاع حكام الأبواب من التعدي على أرضها وتخريبها.

آخر ملوك المسيحية بدنقلا:

في عام ١٣١١ ميلادية استطاع نوبي يدعى (كدنيس) من الوصول إلى الحكم بعد اغتيال أخيه الملك.

لم يعجب هذا السلطان الناصر بن قلاوون، فأرسل جيشا بقيادة الأمير عز الدين إيبك، وفي صحبته ابن أخت الملك داود ويدعى سيف الدين عبد الله برشمبو. نشأ برشمبو في قصر السلطان واعتنق الإسلام. خطة اتبعتها حكام مصر من قديم في الاحتفاظ بالملوك وأبنائهم واللجنين والمطرودين والمعزولين للاستفادة منهم في الاستيلاء على السلطة في السودان متى كان ذلك موافقا لمصالحهم.

دخل الأمير عز الدين إيبك إلى دنقلا فهرب الملك كدنيس إلى الأبواب حيث قبض عليه حاكم الأبواب وأرسله إلى المماليك.

نصب القائد المملوكي، سيف الدين عبد الله برشمبو ملكا على دنقلا، وذلك في عام ١٣١٦ ميلادية.

برشمبو الملك المسلم على دنقلا:

بذلك التنصيب أصبح سيف الدين عبد الله برشمبو أول ملك مسلم على عرش دنقلا. حدث ذلك في زمن كثرت فيه أعداد المسلمين من المماليك والعرب بها.

اختل الأمن في شرق البلاد كما اختل في شمالها من قبل. استطاع

العرب قطع الطريق بين عيذاب وقوص ونهبوا هدايا كانت مرسلّة من ملك اليمن إلى السلطان في القاهرة. حدا ذلك بالأخير إلى إرسال جيش استطاع طردهم من سواكن وطاردهم حتى كسلا، حيث قاتل هناك الجلقّة.

رجع هذا الجيش عن طريق الصحراء إلى الأبواب، فنهب كل شيء لقيه في الطريق. لم يستصفهم حاكم الأبواب إلا يوما واحدا، ولكن برشمبو في دنقلا قدم لهم احتياجاتهم ورجعوا لمصر.

أهم أعمال برشمبو كان افتتاح أول مسجد بواسطة الملك في التاسع والعشرين من مايو عام ١٣١٧ في الطابق الثاني من قصره في دنقلا.

قتل برشمبو واستيلاء كنز الدولة:

أرجع سلطان القاهرة الناصر بن قلاوون، سجنه كنز الدولة إلى أسوان لكي يدير سواقيه التي إلى الجنوب منها، ويدفع خراجها المستحق للأعتاب السلطانية.

وعندما وصل كنز الدولة إلى الدر استقبله النوبة استقبال الملوك، رغم أنه أصبح مسلما إيان سجنه في مصر. بعد ذلك نصبوه ملكا على النوبة بسبب ما عانوه من حكم برشمبو الإسلامي، الذي لم يستسيغوه. كان برشمبو قد أمر على استخلاص الجزية من مسيحييهم، وأخذ الخراج إلى السلطان من كدح المواطنين.

تقدم كنز الدولة إلى دنقلا وحارب برشمبو وقتله. بعد أن استولى على الحكم لم ينصب نفسه ملكا، لأنه كان مقتنعا أن الملك من حق خاله الملك كدنبس المسجون بمصر. حدث ذلك في نهاية عام ١٣١٧ ميلادية.

سلطان المماليك يعين أبرام ملكا:

استيلاء كنز الدولة على الملك أخاف سلطان المماليك. السبب هو الدماء العربية التي تجري في عروق كنز الدولة. بالإضافة إلى عروبتة فهو نوبي يحبه أهله وله شعبية بينهم. كل ذلك قد يمكنه من الحصول على تأييد العرب والنوبة على السواء، فيعيد صياغة المقره من جديد وتعود لها قوتها ومهابتها القديمة.

في يناير ١٣١٨ أطلق الناصر قلاوون أبرام المسجون مع أخيه الملك كدنبس بمصر، لكي يحتال على ابن أخته كنز الدولة ويقبض عليه ويرسله إليه في مصر. بعد ذلك يصبح أبرام ملكا على دنقلا. كما وعده السلطان أيضا بإطلاق سراح أخيه كدنبس.

ذهب أبرام فاستقبله كنز الدولة استقبالا كريما وتوجه ملكا على دنقلا. وفي رحلة لهما لتوطيد الحكم ذهبا إلى الدر، حيث استطاع أبرام القبض على كنز الدولة لإرساله لمصر، ولكن أبرام توفي بعد ثلاثة أيام. اجتمع النوبة ونصبوا كنز الدولة ملكا.

وبسرعة استطاع كنز الدولة توحيد النوبة والعرب واستقل بمملكته.

كدنبس يصير ملكا مرة أخرى:

أرسل الناصر بن قلاوون في نوفمبر ١٣٢٣ الملك السابق كدنبس، الذي أصبح في الأسر مسلما، بصحبة جيش لتتصيه ملكا. عندما وصلا إلى دنقلا هرب كنز الدولة جنوبا، ونصب كدنبس ملكا. بعد رجوع الجيش إلى مصر في نفس العام رجع كنز الدولة واستعاد الحكم بعد أن هزم خاله. الملك كدنبس هرب إلى أسوان في انتظار عون سلطاني.

الخطر الذي كان يجابه مصر من أوربا منعها من إسقاط كنز الدولة. وفي عام ١٣٢٦ ميلادية اعترف السلطان بكنز الدولة ملكا.

نهاية دولة النوبة الشمالية:

البقية من القرن الرابع عشر شهدت الفوضى التي عمت أرض نبتة والمقره القديمتين - أي أرض النوبة الشمالية. إن استيلاء أبناء كنز الدولة على الحكم بعد دخول الدماء العربية فيهم وأصبح ملوكهم من المسلمين، قادت إلى ضعف كبير. بدأت هذه الدولة المسيحية القديمة في الانهيار بسبب اختلاف التوجه والفقر وعدم اذعان سكان المملكة لحكم عربي إسلامي، والتدفق العربي من قبيلة جهينة على أرضهم. فشل النوبة في إبعاد العرب فزوجوهم بناتهم. هذا قاد إلى استيلاء أبناء الأخت على الحكم. وبذلك ازداد نفوذ العرب الذين بطبعهم ليسوا أهل حواضر، ومعيشتهم لا تقوم إلا على الرعي والبادية. توقفت العمارة وتجنيد الجيوش وتوفير الحياة الأمانة للسكان.

تتصيب الملوك استمر في نزاعات متكررة يحسمها المماليك بإرسال جيش يناصر من ينفذ مخططاتهم في البلاد.

نفس الشيء حدث في مملكة نبتة القديمة حيث زاد نفوذ قبيلة ربيعة على المنطقة. ولعل الحملات المصرية أصبحت أقل عدة وعددا، لأن مردود هذه الحملات من النهب والسلب أصبح شحيحا. زد على ذلك فحرب أهل بدواة أكثر إرهاقا، وتأخذ أوقاتا أطول، ولا تأتي بانتصار نهائي ولو كان مؤقتا. وهذا ما حدث في حملة حاجب الحجاب عندما دخل في اشتباكات مع بني عكرمة وبني كنز في الدر. وقد هاب الذهاب إلى دنقلا خوفا من حرب بني جعد.

إن آخر تاريخ يمكن أن نجده كانت فيه دنقلا مملكة بها أمن وملك مسيحي هو عام ١٣٤٠ ميلادية، عندما زارها الراهب الأثيوبي (أوستاتيوس). بعده تفرقت المسيحية إلى جيوب صغيرة حكم هذا أو ذاك أمير أو حاكم صغير. وكان على هذه المستوطنات المسيحية أن تبني حصونا في الجبال وغيرها لحماية نفسها. استمر هذا حتى القرن الخامس عشر.

دولة المسيحية المتلاشية في دنقلا:

هذه الدولة التي رأيناها تتهدد لعوامل متعددة قد بقيت مسيحية قرابة الألف عام، حاربت فيها الإسلام بمصر لعدة قرون متلاحقة، واستمرت قائمة رغم كل العوامل العالمية والمحلية التي وقعت في وجهها، وطورت حضارة معقولة إذا أخذنا في الاعتبار فقر أراضيها.

نشأت في هذه الدولة ستون كنيسة على طراز أو حجم كنيسة فرس. بنوا أولا كنائسهم من الحجر والطوب الأحمر، ولكن فيما بعد رجعوا إلى الطوب الأخضر (غير المحروق).

كانت كنائسهم أولا واسعة، ثم أصبحت صغيرة والمصلون يقفون في الفناء الخارجي.

لنعميد أطفالهم حفروا أولا بركا في الكنائس، في النهاية أخذوهم إلى النيل.

في بعض القرى نجد أن الكنيسة كانت عبارة عن مرصصات حجرية يقف المصلون بينها.

الرسومات التي على الكنائس وفنونها التي أبدعوها كانت تنتمي إلى الفن البيزنطي.

اللغة التي استعملوها في كنائسهم وصلواتهم أولا كانت القبطية واليونانية. ولكن عندما تمكنوا من كتابة النوبية بحروف أخذوها من اللغتين السابقتين، مع تعديل ليواكب موسيقى لغتهم، استعملوا النوبية.

إن الأساقفة الذين تبوأوا هذه الكراسي بفرس وسجلت أسماؤهم وتواريخ توليهم وموتهم، بلغوا ثمانية وعشرين. والملاحظ لتلك القائمة يرى أن كل الأساقفة عندهم البطريك الرومي أو القبطي في الإسكندرية، وأن أغليبيتهم العظمى من الأجانب. وبين هؤلاء لم يرق إلى درجة المطران إلا واحد. إن دولة النوبة في دنقلا أو في سوبا لم تمتلك أي منهما معاهد لتعليم من سيصبحون شماسين وقسوسة وراهبات. وعلى ما يبدو أن المرأة لم تشترك أصلا في التبشير المسيحي، وإن فعلت فإن دورها كان قليلا.

والملاحظة الثانية أن المسيحية كانت متأصلة في البيوت المالكة وفي رجال الدولة وزعمائها، بل منهم من تنسك. أما بالنسبة لعامة الشعب وخصوصا في المناطق البعيدة من المدن فقد كانت مسيحياتهم سطحية

ضعف علوه:

استمرت علوه مستمتعة بخيرات أراضيها الخضراء ومراعيها الواسعة، وابتعادها عن الحروب ما أمكن. إلا أن بعض المشاكل غشيتها. أولا انقطعت تجارتها الخارجية بسبب تحركات القبائل العربية إلى الشمال والشرق منها وفي داخل أراضيها. ثانيا ابتعادها عن الحضارات المسيحية الخارجية في أوربا بسبب المسلمين بمصر، والعرب المسلمين في شرق السودان وشماله وأواسطه. ثالثا فإن المسلمين رغم عدم تنظيم قبائلهم إلا أنهم حملة ثقافة قوية لا تستطيع معها حضارات مسيحية معزولة قرونا،

من الوقوف في وجهها. أضف إلى ذلك أن القبائل العربية بفوضويتها الاقتصادية قد جعلت التجارة الخارجية والداخلية عرضة للنهب والسرقة والفوضى الإدارية. لكل ذلك وبسبب القدم ضعف الاقتصاد بها، فضعفت يدها القابضة على أقاليمها وحكمها، وصعبت موارد دولتهم. ورغم كل هذا، فعلوه بقيت متماسكة حتى يوم هزيمتها.

هزيمة علوه الأولى:

نقل الشيخ الفحل الفكي الطاهر - صاحب كتاب (تاريخ وأصول العرب بالسودان) - عن شيوخ الدين الذين سكنوا سويا شرقها وغربها مثل الحاج حامد ود كبيدي أول من سكن جده سوبا الشرقية بعد خرابها، ومثل الشيخ علي ود عيد من سوبا الغربية، أن هزيمة سوبا حدثت على مرحلتين: المرحلة الأولى اتفق فيها حميدان بن صبح بن مسمار الذي عاد من بارا وسكن جبل العرشكول بالقرب من الدويم، مع قائد قبائل قحطان حيدر بن أحمد بن حمد على غزو سوبا.

في صيف عام ٨٨١ هجرية (١٤٧٦ ميلادية) تحرك حميدان بجيشه من جبل العرشكول وعبر النيل الأبيض بمخاضة أبي زيد. ففي سهل الجزيرة التقى قبائل قحطان بقيادة حيدر بن أحمد فواصلوا السير إلى سوبا. اشتبكوا بجيش سوبا الذي قاده الملك. كانت تلك الحرب ضروسا واستمرت عدة أيام. ويرى الشيخ الفحل أن نزاعا نشب بين الملك (عفايق) والبطريق (ديري ين)، فانهمزما وقتل الملك.

استولى جيش حميدان وحيدر على سوبا وهرب البطريق. لم يخرب هذا الجيش سوبا وإنما استولى على غنائمها ولم يتعرض لكنائسها الأربع - كنيسة الشاطي، وكنيسة قصر الملك، وكنيسة المربعات، وكنيسة باب

الذهب التي قيل إن الشيخ عبد السلام ود كبدي وجد في مدخل أرضي بها بابا ذهبيا أو موشى بغشاء ذهب. ويقول صاحب كتاب (تاريخ وأصول العرب بالسودان) إن البطريق عاد إلى سوبا بعد موت حميدان ومعه جيش يتكون من النوبة والأحباش والبجا وقام بتعميرها وتنصيب ملك عليها.

هزيمة علوه الماحقة:

يقول كاتب الشونة - أحمد بن الحاج أبو علي - في مخطوطته "جماعة فنجه تصل إلى شرق إفريقيا وتختلط وتكون مجموعة أصلها من البيت الأموي في عهد عبد الملك بن مروان". ويستمر في القول "إن هذه المجموعة أتت إلى إرتريا وكان مركزها (لامو) أو (لملم) غرب إرتريا. وفي ولاية عماره بن عدلان دنقس، جاءوا إلى (لولو) واستمرت جموعهم في الازدياد إلى أن انتقلوا إلى جبل مويه المعروف، ثم ذهبوا إلى مكان على النيل تسكن فيه جارية تسمى سنار".

وحسب قول كاتب الشونة فإن عماره خط سنار عام ٩٠٠ هجرية، وحجازي بن معين خط (أرجي) قبلها بثلاثين عاما.

عماره دنقس شكل من أهله الفنح قوة مسلمة قوية استطاعت أن تتحالف مع قبيلة عربية قوية الشراسة، رغم قلة نفرها، هي العبدلاب. العبدلاب هم من عرب القواسمة الذين كان على رأسهم عبد الله جماع القريناتي. اتفق الاثنان على تكوين دولة يكون فيها الملك للفنح والوزارة للعبدلاب.

قرر الاثنان الهجوم على سوبا وإنهاء حكمها المسيحي وإزالة كل أثر لها.

وفي حوالي عام ١٥٠٤ ميلادية هجم الفنج والعبدلاب على سوبا، فقتلوا ملوكها، وكسروا كنائسها، وأزالوا عمرانها، وأصبحت مثلاً للخراب تنتقله الأجيال السودانية.

تفرق النوبة في جبال فاز غلي وكردفان وعلى طول نهر النيل شرقاً حتى ودقمر بأرض المناصير. أبدلوا أسماءهم ودينهم إلى الإسلام وتزاوجوا بالقبائل التي نزلوا معها. لم تبق من آثار حضارتهم القديمة إلا اسم القرية الذي يكون في أغلب الأحوال (النوبة) وبعض أسماء مسيحية مثل (ماريا) التي سموها بها التلال والوديان.

وكما زالت نوبة الشمال (نبتة والمقره) زالت نوبه الجنوب (علوه). وبزوال النوبتين زالت المسيحية، ولكن كثيراً من العادات المسيحية التي كانت في نبتة والمقره وعلوه بقيت حاملة لآثار التاريخ المسيحي بالسودان. وبالقرب من الرصيرص، استطاع النوبة تجميع بعض من شتاتهم، فكونوا قبيلة، بعض قراها تسمى سوبا، ولا زالوا يجلبونها ويقسمون بها.

قيام وسقوط مملكة الفونج:

اتسعت مملكة الفونج فملكّت شمالاً حتى دنقلا، وشرقاً حتى الحبشة، وغرباً دخلوا في نزاعات مع مملكة الفور على أراضي كردفان.

دخلت مملكة الفونج (ولها اسمان آخران.. مملكة سنار والمملكة الزرقاء) في حربين دامتین بسبب خوف ملك سنار من تحركات المسيحيين عبر مملكته إلى الحبشة.

ففي نوفمبر عام ١٧٠٥ قتل الفونج البعثة الفرنسية إلى الحبشة،

فجندت الأخيرة جيشاً ضخماً هزم الفونج. ولكن ملك سنار استعاد قوته
وهجم على الحبشة وهزمها هزيمة نكراء.

إن الحرب لا تذهب بغير ثمن، فدائماً تضعف قوة الشعوب بسبب
تكاليفها وفقدان أرواح بنيتها، وما يصيب كل الأراضي التي تتحرك فيها
الجيوش المقاتلة من خراب.

كل ذلك أضعف التجارة التي كانوا يقومون بها مع أرجاء متعددة من
العالم عبر سواكن التي حكمها الأتراك.

ضعفت مملكة الفونج في سنار، وكانت قوة العبدلاب قد اضمحلت
قبلها. كثرت النزاعات الداخلية بسنار بين الوزراء والملوك، وازدادت
الحروب القبلية على الأرض والكلا وغيره.

كل ذلك جعل من جميع المملكة ثمرة ناضجة تنتظر أي قوة خارجية
تلتقطها.

الحكم التركي المصري بالسودان

جيش محمد علي يدخل السودان:

انتَهز محمد علي الكبير في مصر فرصة ضعف السودان فأرسل ابنه إسماعيل على رأس أربعة آلاف وخمسمائة جندي من الأتراك والأرناؤوط والمغاربة، يحملون بنادق تحشى من المقدمة، وأربعة وعشرين مدفع ميدان خمسة أرتال، كبير طبجيتها أمريكي يدعى (انجلش). تساند هذا الجيش قوة إمداد ونقل قوامها ثلاثة آلاف مركب. على القوة الأخيرة أن تنقل إسماعيل وجنده وإمداداته من أسوان إلى دنقلا، ثم تعود إلى أسوان لتحمل جيشا آخر بقيادة الدفتردار، وتأخذهم إلى الدبه من حيث يشق طريقه من هناك إلى كردفان ودارفور لفتحهما.

عندما ارتفعت مياه النيل بالفيضان في يوليو ١٨٢٠ تقدمت قوات إسماعيل البحرية والبرية، فاستسلم لها في الدر حسن كاشف بعد هروب أخيه حسين، ثم في السكوت استسلم الكاشف حسن وردي، ولكنه ضاق بالأتراك فثار فقتلوه. الملك صبير تبعهم في الاستسلام في عاصمة المحس دلقو. في أرقو استسلم الملك طنبل، وفي دنقلا العرضي استسلم بعض المماليك، وهرب الباقون إلى أرض الجعليين.

إسماعيل في أرض الشايقية:

ملك مروي شاويش، وملك غرب أرض الشايقية الملك صبير اتفقا على مقاومة الجيش الغازي. الملكان لم يجدا من يساندتهما عسكريا من كل القبائل حولهم لأنهم كانوا على عدااء معهم. مملكة الفونج لم يكونوا جزءا منها.

أول فرقة خيالة من العدو دخلت أرضهم في نوفمبر ١٨٢٠ لاقت

هزيمة منكرة، عندما قتل الشايقية منهم سبعين فارسا وهرب الخمسة والعشرون الباقون.

بالقرب من كورتي هجم إسماعيل بقواته وأسلحته النارية على قوات جاويش وصبير. استطاع هذا الجيش الغازي هزيمة الشايقية في ساعات ثلاث، وحصد منهم أعدادا كبيرة ببنادقه ومدافعه. كان إسماعيل يعطي كل جندي يقتل شايقيا مكافأة إذا قدم له أذني القتيل. أتى لإسماعيل جنوده بأذان من قتلوههم ومن لم يقتلوهم.

قبضت قوات إسماعيل أثناء المعركة على مهيره بنت عبود التي كانت تشجع أهلها على القتال. إسماعيل استقبلها استقبالا كريما وحملها بالهدايا وأرجعها مع أحد ضباطه عبدي كاشف إلى والدها شيخ السوراب. سلم السوراب والملك صبير لإسماعيل وهرب الملك جاويش وقواته المتبقية إلى أرض الجعليين. إسماعيل ضم قوات الملك المستسلم إلى جيشه وساروا معه جنوبا.

الأتراك في بربر:

في الخامس من مارس ١٨٢١ وصل إسماعيل إلى بربر. استسلم له هناك الملك نمر بعد أن أصر على استقدامه من شندي ولقي منه معاملة غير كريمة. تقدم الجيش إلى شندي وعاث في أرضها تخريبا، ولكن هناك استسلم له الملك جاويش وجماعة من المماليك.

إسماعيل في أرض العبدلاب والفونج:

في الحلفايا جاء الشيخ ناصر الأمين وسلم إسماعيل مملكة العبدلاب. تقدم الأتراك وعبروا النيل عند الخرطوم وتوجهوا إلى سنار. لم يجد

الملك بادي السادس غير الاستسلام لإسماعيل. في الثالث عشر من يونيو عام ١٨٢١ وقع الملك على التنازل على أنه تنازل لخليفة المسلمين في القسطنطينية.

عندما وقع بادي على معاهدة الاستسلام هذه لم يكن مع إسماعيل أكثر من ألف وخمسمائة جندي مهلهل الثياب، بعد أن وضع حاميات في الطريق لتأمين إمداداته.

وبذلك انتهى حكم دولة الفونج الذي دام حسب كلمات أحمد بن الحاج أبو علي (كاتب الشونه) ثلاثمائة وخمس وثلاثين سنة وثمانية شهور هجرية.

الأتراك في كردفان:

الدفتردار وصل بقواته إلى بارا حيث قاتل المقدوم مسلم والي كردفان. لم تنفع الأخير البسالة، وحصدت الأسلحة النارية قواته في ١٦ أبريل ١٨٢١.

لم يتقدم السلطان محمد الفضل - سلطان دارفور - لحماية كردفان وعدل الدفتردار عن التقدم لأرض دارفور.

الأسباب التي من أجلها جاء الأتراك:

إن أغراض محمد علي، للاستيلاء على السودان كثيرة ولكن أهمها:

١- الحصول على الذهب الذي سمع به قبلا.

٢- توسيع رقعة جني ضرائبه.

٣- الحصول على أرقاء من مناطق أعالي النيل يبدل بهم جيوشه التي أبت التحديث الذي كان يريده لجيشه على النمط الفرنسي.

٤- تأمين منابع النيل.

فشل المقاصد:

رغم إرسال محمد علي الكبير لابنه إبراهيم لكي يصطاد له الرقيق من أعالي النيل، إلا أنه مرض وفشلت مقاصده إلا من صيد قليل.

بخصوص الذهب فرغم المحاولات الجادة لاستخراجه، إلا أن المحاولات فشلت في الحصول على ذهب تجاري.

أما قصة النيل فإن المناطق التي احتلوها بها نيل ولكن ليست بها منابعه التي كانت أغلبيتها مجهولة في ذلك الزمان.

الضرائب التي سعى لها قادت إلى ثورات متعددة، وإلى هجرة السكان من مناطق تجمعاتهم الزراعية والحضرية.

زد على ذلك فإن إسماعيل نفسه حرقه الجعليون مع مائة من جنوده في طريقة راجعا إلى مصر في ديسمبر عام ١٨٢٢.

قاد هذا الحرق إلى عملية انتقام قام بها الدفتردار في أواخر عام ١٨٢٣. قضى الدفتردار على كثير من الحسانية، وأهل الحلفايا والعيلفون وشندي وأحرق الدامر، وهاجم القبائل البدوية بما فيها الكباشيش الذين أعانوه عند دخوله بالجمال إلى كردفان. المك نمر ذهب إلى الحدود الحبشية وأقام مدينة هناك مع أهله أسماها المتمة وأقاموا بها.

الذي لا جدال عليه إن عملية الانتقام هذه شكلت الخلفية السياسية لكل

علاقات السودان بمصر منذ ذلك التاريخ إلى يومنا هذا.

وهكذا رزح السودان تحت حكم تسلطي قمعي جاهل فاسد ومتعفن،
لمدة ستين عاماً.

الاستعمار التركي المصري في السودان:

أرسلت مصر إلى السودان ثمانية عشر حكمداراً اتخذوا من الخرطوم
عاصمة لحكمهم.. أفضلهم كان جاهلاً علماً وعملاً. أما بقيتهم فقد لجأوا
إلى الفساد والرشوة والعنف لإبقاء السودان تحت التسلط والنهب
المصري. هجر السكان المناطق الزراعية خوفاً من الضرائب التي تجبى
لمصر، وللعنود الذين يأتون لجمعها. أما الذي لا يدفع فقد كان له التعذيب
والربط في الشمس والضرب وسجن القطط في ملابس الرجال الداخلية
السفلى. وحتى الذي كان لهم موقف موال للحكومة المصرية مثل الشيخ
محمد شريف نور الدايم، فقد وصف الحال في أبيات شعر (تاريخ السودان
الحديث ١٩٨٠ صفحة ١٢٠) يقول فيها:

وما أبت السودان حكم حكومة	إن أتى ضعف المطالبين من مصر
كالثلاث والتثنيين للمير وحده	وللشيخ والنظار أضعافه فيأدر
بضرب شديد ثم كف مؤلم	من بعد الإلقاء في الشمس والحر
وأوتاد ذي الأوتاد من بعض فعلهم	وأشنع من ذا كله عمل الهر

إن الذي يهمنى من كل هذا الحكم في هذا الكتاب هو أنه من خلال هذا
الحكم عادت المسيحية إلى السودان مرة أخرى.

عودة المسيحية إلى السودان

القس الطريد:

في أوائل شهر مايو عام ١٨٤٢ ميلادية، نزل من مرتفعات الهضبة الحبشية قس (لازاري) حافي القدمين، يصحبه في رحلة اللجوء إلى الحكم التركي بالسودان - بعد أن طرده إمبراطور الحبشة - رجل دبلوماسي يدعى إدوارد بلونديل فان كارل بروك (لازاري تعني الطائفة الكاثوليكية التي ينتمي إليها).

في العشرين من مايو تلقى أول لفحات من حرارة الخرطوم التي لطفتها بعض رطوبة من النيل الأزرق والأبيض وبعض الحدايق التي نعمت بها الخرطوم.

الخرطوم الفاجرة:

استقبلت الخرطوم الأوربيين استقبالا طيبا قل من حرارة الجو المحيطة بهما. إن القس اللازاري، ويدعى (لويجي مونتوري) اقتنع أن الخرطوم في حاجة إليه أكثر من إمبراطورية أسد يهوذا. فقد وجد القس أن هناك عددا كبيرا من المسيحيين الأوربيين، وحتى أقباط مصر، ليست لهم كنيسة تقدم الخدمات الدينية التي يحتاجونها، وتقتن لهم زواجهم.

رأى مونتوري أن إنشاء كنيسة كاثوليكية، ستساعد كثيرا في خدمة الكاثوليك، وخصوصا فإن كل الكاثوليك الأوربيين كانوا يعيشون مع نساء أثيوبيات وغير أثيوبيات دون عقد زواج ديني أو مدني.

بالإضافة إلى ذلك وجد بالخرطوم عددا ضخما من المواطنين الوثنيين الذين لن يجد صعوبة في إقناعهم بالدخول في ديانته.

لم يهتم الأوروبيون ماذا يفعل القس بديانة الإفريقيين، ولكن الذي امضهم هو أن هذا القس يريد أن يعيد القيم الدينية التي نسوها منذ أن بارحوا قارتهم الأوروبية. كانوا يأتون إلى الخرطوم ويعيشون في الخيطنة مع أجمل ما يجدون من نساء غريبات أو فقيرات، وينجبون أطفالاً، إذا سافروا تركوهم دون معين أو رعاية، وإذا ماتوا - بسبب نقشي الأمراض - فمخلفاتهم من إرث يطالب بها أهلهم عن طريق قنصلهم في مصر، ولا يعترفون بأبنائه أو خليلته. لذلك كان موقف الأوروبيين الكاثوليك من القس مشوباً بالشك وعدم الرضا. لم يقدموا له أي معونة تذكر، لذلك بقي عليه هو أن يقوم بالمبادرات.

قصة الكنيسة والمقبرة:

ذهب مونتوري مع صديقه البلجيكي إلى حاكم السودان العام (الحكمдар) أحمد باشا أبو ودان، مطالبين بكنيسة للكاثوليك ومقبرة لكل المسيحيين بما فيهم الأقباط.

كان موقف الحكمدار بالنسبة إلى المقبرة صعباً، فهو حاكم لا يعطي بدون مقابل لجيبه. وافق على قطعة أرض تقع اليوم في داخلية كرار التابعة لكلية طب جامعة الخرطوم. أما بالنسبة إلى الكنيسة فلم يشأ أن يخصص لها أرضاً، ولكن عرض عليهما صفقة تجارية هو سمسارها. عرض عليهم منزل البمباشي سليم قبطان، الذي كان يعمل في ترسانة الإسكندرية وأرسل إلى الخرطوم في عام ١٨٣٩، لكي يستكشف لمصر أبعد نقاط على النيل الأبيض لإضافتها إلى مستعمراتها، في مايو ١٨٤٢ كان قد قرر الرجوع إلى مصر بعد ثلاث رحلات في أعالي النيل الأبيض. وعلى ما يبدو أنه لم يقتنع بوجود إمكانيات فعلية للتوغل في احتلال الأراضي الإفريقية. منزله الجميل كان يتكون من غرفتين وفرنده

بني بالطين بناء جيداً، وهو يقع في مكان مباني ولاية الخرطوم الحالية. كان المنزل محاطاً بأشجار النين والرمان التي تسقى من الحفرة التي أخذ ترابها لبناء المنزل. إن المياه تصل إلى الحفرة من الفيضان الذي يغمرها ومن التسرب لانخفاضها عن مستوى النيل في عدة شهور من السنة. مساحة المنزل كانت ألفي متر مربع، بطول شرقي غربي قدرة مائة وعشرة أمتار وبعرض يقل عن عشرين متراً. اشترى الأب مونتوري المنزل دون تردد. وبعد ساعات من دخوله كانت خطته جاهزة لما سيفعله فيه.

ولم لا:

لبس الأب مونتوري عندما كان بالحبشة البنطلون والقميص الأوربيين، مع قطعة قماش يلفها حول البطن، وشال يضعه حول عنقه. قدماء كانتا حافيتين تماماً. في الخرطوم وجد أن هذه الملابس لا تصلح، ووجد أن رجال الدين المسلمين يلبسون قفاطين الأزهر، فيظهرون أكثر احتراماً. عندها قال قولته الشهيرة.. ولم لا.

خاط القس قفطاناً أبيض به حزام من الحرير المنقوش بزهور صغيرة حمراء. فوق ذلك جبة زرقاء تصل إلى قدميه. على رأسه طربوش مغربي أحمر بزر أسود وحوله عمامة بيضاء. على قدميه مركوب تركي بلون التوت. كل ذلك على جسم متوسط الطول وبشرة بيضاء لسعتها الشمس. ظهر القس بشخصية تدعو للاحترام والتجلة. أسماء المسيحيون الأقباط (قسيس الكاثوليك) وأسماء المسلمون (أبا فرانكو).

بابا فرانكو في سوق الخرطوم:

على بعد ثلاثمائة متر تقريبا من منزله سوق الخرطوم، به القصابون وباعة الخضر والحبوب والزيوت والسمن والفاكهة وبعض البقالات التي تأتي من أوروبا ومصر، وأقمشة الهند وسوريا، وتبako مصر وتركيا. الحوانيت صغيرة، والتجار ينقل أكثرهم بضائعهم في المساء إلى منازلهم. في النهار ترش الأرض بالماء وترص البضائع، ويجلس البائع على عنقريب (سرير) يدخن الشيشة، وينتظر الزبائن لكي يسألوا عن أسعار بضائعه التي في رأيه أنها أجود بضاعة في السوق. حتى إذا جاء بابا فرانكو استقبلوه استقبالا حارا فهو لا يجادل كثيرا في الأسعار، وقد اشترى منزلا جميلا. جميع العملات التي كان يتعامل بها في الحبشة عملات قابلة للتعامل في السودان. الجنيه الإنجليزي الذي يسمونه هنا (الخيالة) نسبة إلى صورة سنت جورج به على حصانه. القلدر النمساوي الفضي يسمونه هنا القشلي وفي بعض الأحيان يسمونه أبا طيرة أو أبا نقطة نسبة إلى الطائر والنجمة على جانبه المكتوب. حتى ربع القلدر النمساوي وجده بالسودان، ويحرفون اسمه (الفوريني) إلى (الفريني). أيضا وجد الريال الإسباني والخمسة فرنكات الفرنسية.

لم يجد القس مشكلة في التعامل مع الباعة في السوق، رغم أن السوق في الخرطوم كان أكثر سعرا من رصيفه الحبشي.

أول كنيسة كاثوليكية بالسودان ومدرسة:

ما كادت تمر فترة الخريف حتى شمر القس عن ساعديه وركب مركبا أخذه إلى سوبا القديمة - على بعد نصف ساعة من الخرطوم - وأمر العمال بحفر الأساسات الموجودة هناك وأخذ طوبها المحزوق. إن

سوبا القديمة كانت المكان الوحيد القريب من الخرطوم به طوب محروق. حملت المراكب الطوب الذي استخرجوه إلى الخرطوم، حيث بدأ العمال في بناء كنيسته ومدرسته. كان العمل شاقا بحق. لا لأن العمال غير موجودين، ولكن لأن المستوى الذي يعملون به لم يعجبه. إنهم عمال يفقدون الخبرة في بناء الطوب. العمالة الخبيرة بمصر لم ترحل جنوبا، لأن السودان لم يحضر إليه المصريون إلا عندما تستعمل الحكومة القيود لحملهم على الرحيل إليه. كان السودان منفى الذين غضبت عليهم المعية الخديوية. بعض الجنود في الوحدات الهندسية كانوا يقومون ببعض الأعمال البنائية ولكن الذين حضروا إبان عهد خورشيد باشا رجعوا أو ماتوا. البقية الموجودة تدريبها لم يكن مقنعا. لذلك كان على القس أن يقف طوال نهاره موجها بالالتزام بالخيوط التي يقوم بشدها بين أول الحائط وآخره. في المساء كان يفكر فيما سيدرسه في المدرسة، وفي تنظيم الكنيسة والدعوة لها، وفي إبعاد الناموس الذي كان يلسعه دون رحمة.

انتهى البناء واكتملت خطته لما سيدرسه في المدرسة من واقع ما مر عليه من تجارب.

عندما فتحت الكنيسة:

عندما افتتح الأب مونتوري كنيسته، دعا كل الكاثوليك وغير الكاثوليك لحضور احتفاله. لكي يجعل المناسبة أكثر متعة أقنع رجلا كاثوليكيا سوريا يدعى إبراهيم خير بعقد زواجه في الكنيسة الجديدة. خطيبته كانت أرملة رجل فرنسي. يدعى (جوزيف فرانسيس فيجير) توفي في عام ١٨٤١ عن عمر ناهز السابعة والخمسين، وكاثرين أرملة لا زالت في ثلاثينياتها.

افتتحت الكنيسة بكل العظمة التي كان من الممكن أن تسبغها الخرطوم على هذه المناسبة. عندما بدأت طقوس الزواج، الذي حضره عدد كبير من أهل الخرطوم، كانت الموسيقى تتبعث من آلات نحاسية تعزفها فرقة مصرية من الجيش. لم تكن هناك (نوتة) للعزف، لذلك لم يستطع الأب مونتوري أن يقدم لهم موسيقى لعزفها، بل كان الشيء الوحيد الممكن أن يعزفوه من (ريبيرتوارهم) الخاص.

عندما أشار عليهم القس بالعزف، رأى قائد الفرقة أن عزف السلام الجمهوري الفرنسي يجاري هذه المناسبة، فلم يتردد في عزفه، عندما انتهى (المارسييز) سريعا رأى قائد الفرقة أن يلحقه بسلام السلطان سليم.. ففعل. وكصاحبه انتهى سريعا.. توقف العازفون قليلا فلم يسمعوا أو يروا حركة استحسان. فالسلام الأول جعل العروس الفرنسية تنتصب بعد ركوعها على الدرج الأول أمام المذبح، والسلام الثاني أوقف العريس السوري متجمدا أمام عروسه. اهتدى قائد الفرقة إلى طريقة أفضل لعزف.. مارشا عسكريا!!

عندما افتتحت المدرسة:

عندما تمت مباني الخمس الغرف الجيدة البنيان، كانت الأفكار قد اكتملت تماما في رأس الأب مونتوري. كان يريد أن يعلم الطلبة الذي يدخلون مدرسته الدين المسيحي، والكتابة والقراءة، ثم لأبناء غير الموظفين الحداثة والنجارة والبناء، وأشغال الإبرة للبنات. حدد شهر أكتوبر عام ١٨٤٣ لدخول الطلبة إلى المدرسة.

مر هذا الشهر دون أن يطرق بابه طارق يريد الانخراط للدراسة. لم يكن مفهوما لديه لماذا لا يريد الأوروبيون أن يرسلوا أبناءهم إلى المدرسة.

ذهب إليهم في منازلهم لإيجاد إجابة، وفي الحقيقة لم يجد إجابة شافية كافية. ولكن الذي توصل إليه كان صحيحا، فوجوده في الخرطوم لم يكن مرغوبا فيه من ناحية الأوربيين. ثانيا لم يكن بين هؤلاء الأوربيين من ينظر إلى أبنائه من الأنثيوبيات وغيرهن نظرة بنوة بحق.. فهم بكل المقاييس الأوربية حينها أبناء خطيئة.

الأقباط كانت لديهم مدرستهم الخاصة، أما الإفريقيون فمفهوم التعليم لم يشق طريقه إلى خلايا عقولهم بعد.

جلس القس اللازاري ليرى أهرامات أرائه تتهاوى أمامه، ولكنه كان أكثر عزيمة مما توقع الأوربيون له. عندما أظلمت الأرض أمام عينيه، ذهب إلى حديقة أرضه، التي أثارها بأشجار البرتقال والعنب وفتح جداول جزء منها لزراعتها في الشتاء القادم بالخس والفجل والقرنبيط وغيرها من الخضروات التي أحضر بذورها من سوق الخرطوم. في مكان بعينه نبش حفرة وأخرج ما في بطنها. ما أخرجه كان صندوقا حديديا.. فتحه وأخرج منه بعض مال، ثم أعاد دفنه.

في الصباح خرج مبكرا، ولكنه لم يذهب كعادته لصيد السمك الرائع الطعم من النيل الأزرق، وإنما ذهب لسوق النحاسين واشترى عشرين طفلا!!

عندما تم التسليم في فناء المدرسة، كان قد اشترى لهم قمصانا وأردية من الدمور السوداني. غسل الأطفال أجسادهم، ولبسوا حلالهم الجديدة، وتناولوا إفطارهم واتجهوا حسب توجيهاته إلى الفصل الأول من المدرسة. هؤلاء كانوا أول طلبة درسوا في مدرسة كاثوليكية في تاريخ السودان.. قديمه وحديثه.

القس الذي أرقق:

كان الأب منتوري بالإضافة إلى أعبائه الضخمة التي رسمها لنفسه، من إعداد وجبات الأطفال وتعليمهم وتدريبهم، وقبل كل ذلك، إبدال ديانتهم الوثنية إلى مسيحية، تأخذ ساعات طوال من يومه.

عندما بدأ مخزون علبته المالي في الاضمحلال، جاب أنحاء المدينة بحثاً عن موارد تساعد إرساله. كان يريد معلمين لتعليم مبادئ اللغة العربية، وكان يريد من الكاثوليك أن يقدموا بعض الإعانات لكنيستهم الوليدة. وجد مساعدة في المجال الأول، أما في الثاني فقد كانت الاعتذارات أكثر من المساعدات. لذلك لجأ إلى عمل زاد من أعماله اليومية، قاد الطلبة إلى حديقة المنزل لزراعة الخضروات سريعة الإنتاج لبيع جزءا منها في السوق والباقي لإطعام طلبته. كل ذلك الإرهاق في الخرطوم العالية الحرارة الكثيرة الأمراض التي لا علاج لها في ذلك الزمان، الدسنتاريا والتيفويد والمalaria كلها كانت من الأمراض القاتلة. إن malaria بلا شك كانت صاحبة اليد الطولى في نهاية حياة الآلاف من المواطنين الأوروبيين والعرب والسود. كان سبب تفشيها أمام عيونهم ولكن لم يفكروا فيه. كان بناء المنازل يحفرون حفرة لأخذ ترابها لبنائه. إذا بقيت الحفرة أمام المنزل حتى الفيضان والأمطار امتلأت بالمياه. بالإضافة إلى جنان الناموس هذه، كانت تتبعث من هذه البرك روائح النتن بفعل التخمر والأدران والأوساخ التي ألقيت بها.

إصابات malaria التي ألمت بالأب منتوري تعددت، وزاد من تعددها الإرهاق والعمل المتواصل مما أضعف مناعته.

وفي أقل من عامين من دخوله الخرطوم كان في طريقه خارجا منها.

هذه المرة نحو الشمال، تاركاً خلفه مدرسة نال طلبتها بعض تعليم وبعض معرفة بالمسيحية، وكنيسة لم يؤمها بعد تركه لها أحد من الجالية الفرنسية أو النمساوية أو الألمانية.

هذا ولم تصبح الخرطوم أكثر حفاوة بخلفه الأب (سيراو) فتركها سريعا.

الفاتيكان تحاول مرة أخرى:

الفاتيكان هذه المرة أرسلت قسيسة ثلاثة مرة واحدة. غادروا القاهرة في سبتمبر ١٨٤٧، وقضوا في الطريق ما يقارب الخمسة أشهر، ليصلوا إلى الخرطوم في الحادي عشر من فبراير ١٨٤٨. هؤلاء كانوا الأب ماكسميليان رايلو، والأب بدمنتا كنوبلخر وبالثم الأب أنجلو فنكو.

بدأت هذه المجموعة فوراً بنفس عزيمة منتوري في العمل الاجتماعي والرسالي. ولكن سريعا سقط قائد هذه العصابة الأب رايلو في السابع عشر من يونيو ١٨٤٨. أي ببقاء في الخرطوم لم يزد عن أربعة أشهر إلا بأبام، وكان أول ضحايا هذا التبشير.

دفن رايلا في حديقة الكنيسة، شمال فصول المدرسة. وسارت الحياة على رسيمها السابق بقيادة الأب كنوبلخر. هذه المرة كانوا أكثر حنكة، فعندما شعر الأب كنوبلخر أن زميله بدأت تتهد قواه قام بإرساله فوراً إلى إيطاليا للعلاج والاستجمام. وفي الأشهر الأخيرة من عام ١٨٤٩ كان الأب فينكو في فيرونا بإيطاليا محاولاً إقناع زملائه وطلبة المدارس اللاهوتية والمؤسسات الخيرية بأهمية إرسال مبشرين إلى إفريقيا - أي الخرطوم - ومدهم بالمال للقيام بدعوتهم المسيحية.

أحد الذين استمعوا إلى دعوته جيدا، طالب كان يدرس اللاهوت في معهد الأب نيكولا مازا. هذا الطالب الشاب كان يدعى (دانيال كمبوني) الذي افترن اسمه في المستقبل بالسودان. كثيرا.

الشريف حسن:

عندما عاد الأب فنكو إلى الخرطوم في ربيع عام ١٨٤٩، وجد المدرسة في حالة عمل دؤوب، والمزرعة التي أمامها امتلأت بالخضروات والموز والتين والقشطة وتساعد كثيرا في أكل الطلبة ودخل المدرسة.

ولكن ما كاد ينتهي العام حتى وجدوا أن دخلهم وما أتاهم من أوربا لا يكفي لما يقومون به من أعمال. طلب المعونة من المسيحيين بالخرطوم لم يثمر كثيرا، ولكن أكثر من ساعدهم، حتى تلك اللحظة، رجل مسلم من تجار الخرطوم يدعى الشريف حسن والد حسن الشريف حسن أفندي معاون مديرية بربر.

إن الشريف استقبلهم في منزله عندما أتوا في فبراير من عام ١٨٤٨ وأمدهم بالخيام التي سكنوا فيها أولا أمام حجرات المدرسة. والآن هم في حاجة لمساعدته أكثر من أي وقت مضى. اشترى الشريف حسن لهم من ماله الخاص قطعة الأرض التي تفصل بين مدرستهم والنيل الأزرق. إنها أرض خصبة ستزيد إنتاجهم إلى عشرات أضعافه. كانت هناك قطعة أرض صغيرة بها منزل في الجانب الشرقي من تلك الأرض لم تدخل في الأرض التي أهداها لهم، لأنها كانت مملوكة لتاجر فرنسي يدعى (برون روليت).

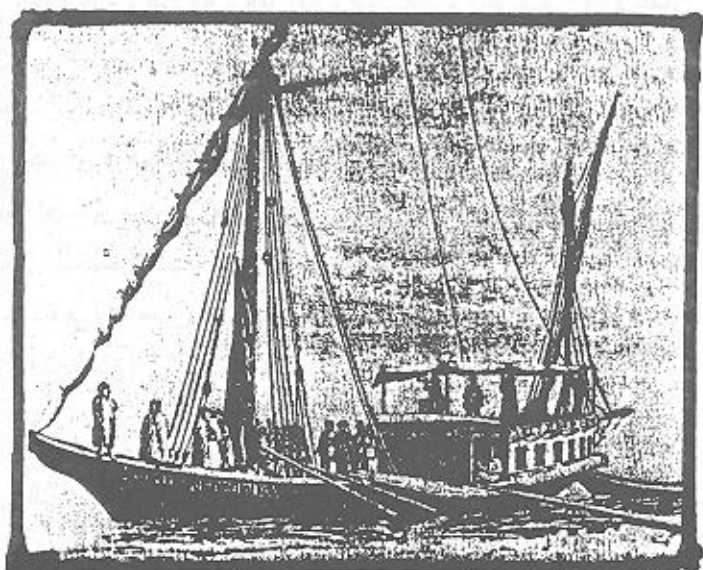
تحسنت الأمور قليلا وازداد الإنتاج الزراعي واستمرت المدرسة في

تعليم المسيحية والكتابة والقراءة والحساب والموسيقى والأعمال اليدوية. ولكن في نفس الوقت فإن مكتشفات (كنوبلخر) التي قام بها على النيل الأبيض إلى جبال (لوف وك) بالقرب من جوبا، أقنعتته بأن هناك عمليات تبشير كبرى يجب أن يقوم بها. إن هذا يستدعي العيش هناك وتعلم اللغات المحلية حسب أمر الإنجيل: (وقال لهم اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليفة كلها. من آمن واعتمد خلص ومن لم يؤمن يدين. وهذه الآيات تتبع المؤمنين يخرجون الشياطين باسمي ويتكلمون بالسنة جديدة. ١٥/١٦ مرقص)

إن الرجال والمال المطلوب لكل هذه المهمة لا قبل لهم به، لذلك قرر السفر إلى أوروبا.

جمعية مريم:

سافر كنوبلخر إلى أوروبا. في فينا كون (جمعية مريم) لكي تقوم بعمليات جمع المال لفكرة التبشير بالمسيحية في السودان. حلت هذه الجمعية النشطة كثيرا من المشاكل التي كانوا يعانون منها. أول نفحات من هذه التبرعات التي جمعتها الجمعية ظهرت في شراء ذهبية نيلية من خير الدين باشا في مصر. غيروا اسم الذهبية إلى (استيلا ماثوتينا - أي نجمة الصباح). حملت هذه الذهبية كنوبلخر ومجموعة المبشرين الجدد الذين أتوا معه إلى الخرطوم. المجموعة تركت القاهرة في العاشر من أغسطس ١٨٥١ ووصلت إلى الخرطوم في السابع من ديسمبر من نفس العام



الذهبية التي أسميت (نجمة الصباح) اشترت من مصر لتعمل في التبشير في جنوب السودان

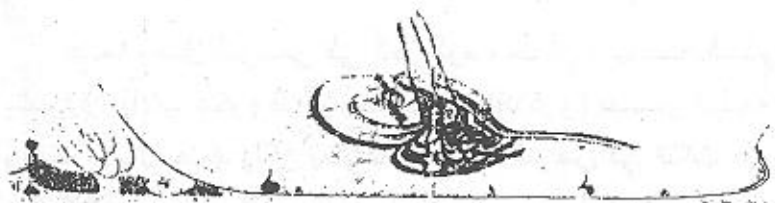
عمليات الانتشار:

عندما وصل كنوبلخر إلى الخرطوم وجد أن زميله الذي تركه بالسودان (الأب فنكو) قد أنشأ كنيسة في (قندكرو) بين قبيلة الباريا واستمر يعمل هناك ولكن بعد عام صرعه المرض في الثالث من يناير عام ١٨٥٣. ورغم الحزن الذي أصاب كنوبلخر لسقوط زميلين له إلا أنه استمر في عمله، وافتتح محطة أخرى في مكان أسماه (الصليب المقدس) بالقرب من شامبي، وعلى بعد ستين ميلا شمال (قندكرو) في أرض قبيلة الدينكا.

إمبراطورية الهابسبيرج:

وجود تجار نمسويين، وحركة دينية كاثوليكية يعمل فيها عدد من القسوسة النمسويين والتابعين للإمبراطورية النمسوية شجع الإمبراطور (فرانس جوزيف) للتفكير في إنشاء مستعمرة على النيل، أو على الأقل في أراضي النيل الأزرق ولو بالشراء.

هذه الفكرة اتخذت أشكالا عدة، من ضمنها استعمال مستعمرة المستقبل هذه بالسودان في استقبال المجرمين، أسوة بارسال بريطانيًا لمجرميها إلى أستراليا. ولدراسة هذه الأفكار عليهم أن يرسلوا مندوبًا لدراسة الوضع وتشجيع التجارة بين النمسا والسودان.



Handwritten text in Ottoman Turkish script, consisting of approximately 15 lines. The text is written in a cursive style and is heavily obscured by numerous dark ink blotches and stains, making it largely illegible. The lines are arranged in a slightly curved, descending pattern from left to right.

فرمان منتصف مارس ۱۸۵۰ بموافقة السلطان التركي
عبد المجيد على تعيين مولر قنصلاً للنمسا بالخرطوم

في الرابع عشر من يناير ١٨٥٠ أصدر إمبراطور النمسا مرسوماً إمبراطورياً بتعيين نبيل شاب في السادسة والعشرين من عمره زار السودان من قبل وعاد إلى أوروبا في عام ١٨٤٩، قنصلاً لوسط إفريقيا مقيماً في الخرطوم. ذلك الشاب هو (جوهانس ويليام فون مولر) على أن يساعده - كسكرتير له - الدكتور (كونستانتين رايتس).

هذا النبيل النمساوي الذي كان بالسودان في عام ١٨٤٧ وشجع الإمبراطور على فكرة المستعمرة، تم الحصول له على فرمان من الباب العالي لاعتماد قنصليته من السلطان عبد المجيد في منتصف مارس عام ١٨٥٠. بعد أيام تسلم خديوي مصر عباس باشا التعليمات العلية وفرمان تعيين البارون (مولر) للخرطوم.

هذا البارون بدل أن يذهب إلى الخرطوم، لتسلم أعباء منصبه الاستعماري، بدأ الطواف على القصور الأوربية لإقناعها بأهمية إيجاد مستعمرة للهابسبيرج بالسودان.

صحيفة (اشتقارت) نشرت مقالة هاجمت فيها البارون بأنه أحضر ثلاثة من الإفريقيين من جنوب السودان في عام ١٨٤٧ إلى أوروبا وعاملهم معاملة قاسية.

هذه المقالة قادت الإمبراطور النمساوي إلى تغيير رأيه في هذا البارون، الذي عين قنصلاً في الخرطوم، فجعل من نفسه سفيراً إلى قصور الأوربيين لمدة قاربت العام.

في الرابع من يناير عام ١٨٥١ قرر الإمبراطور تعيين موظفه بقنصليته بالإسكندرية (الدكتور كونستانتين رايتس الألماني) قنصلاً عاماً بالخرطوم.

هذا القنصل درس علوم الغابات، ثم تركها للفلسفة وتخرج من جامعة (قيزن).

عندما وصل إلى الخرطوم وجد نفسه أول نائب قنصل بالسودان، ولكن ليس الأول كممثل لدولة أوربية. قد سبقه في تمثيل فرنسا (جورجز ثيبو). منذ عام ١٨٣٩. وفي الحقيقة فإن كل الذين أتوا بعده أصبحوا نواب قناصل لبلادهم بالسودان المستعمر وتابعين لقناصلهم بالإسكندرية ويطلق عليهم قناصل مجازا.

أهم أعمال نائب القنصل النمساوي شملت:

- ١- دراسة موضوع المستعمرة وكيفية الحصول عليها ومكانها.
- ٢- إمكانية سجن المجرمين النمساويين بهذه المستعمرة.
- ٣- إمكانية إرسال مزارعين من النمسا للعمل في مزارع المستعمرة.
- ٤- إجبار مصر على حرية التجارة المنصوص عليها في اتفاقية عام ١٨٣٨.
- ٥- حماية الكنيسة الكاثوليكية الناشئة بالخرطوم ومدرستها وبقية أعمالها في الجهات الأخرى مستقبلا بالسودان.

المبنى الذي شيد ليبقى:

مباني الخرطوم كان أكثرها يعاني الضعف عموما. الطين والطوب الأخضر الذي كانت تبنى منه، وخصوصا طين الخرطوم، هو أسوأ المواد التي يمكن أن تستعمل في البناء. إنها مبان لا تحتل الأمطار، وخصوصا إذا تلاشت الطبقة الخارجية التي تتكون من روث البهائم والتراب والقش..

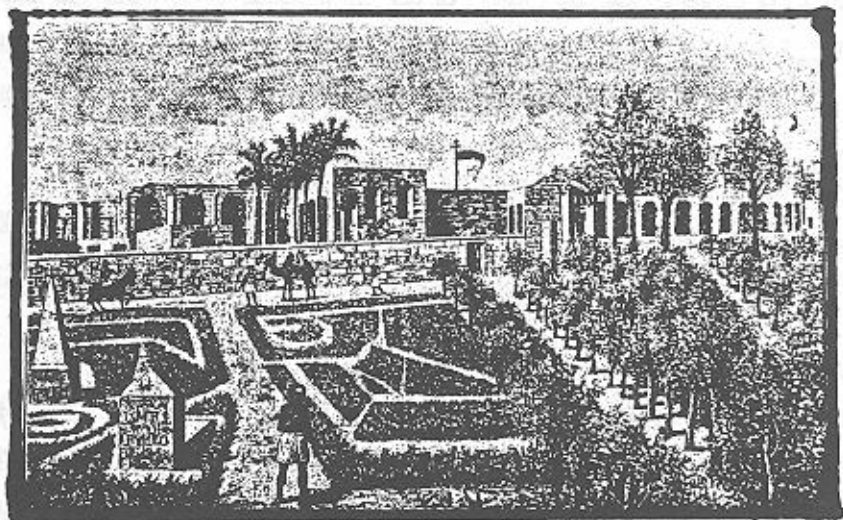
القصر الجمهوري أو ما كان يسمى (قصر الحكمدار) كان قد بناه خورشيد باشا في عام ١٨٣٠ بحجارة أتى بها من شمال أمدرمان وطوب من سوبا القديمة.. أيضا من المباني التي بقيت بعض الوقت جامع أرباب العقائد الذي جدد مبانيه خورشيد باشا أيضا بطوب أتى به من سوبا.

هذه المرة فإن المال الذي أحضر من تبرعات الأوربيين مع العمالة الماهرة التي أتت مع المال، سوف تقدم للخرطوم مبنى من نوع خاص، لكي يكون مقرا لأكبر كنيسة بالسودان ومدرسة.

وضع حجر الأساس في يناير ١٨٥٤. العمال الأجانب كانوا أولا من (تسكني) ولكن أضيف إليهم عمال بناء من (تيرول). الذي أشرف على العمل كان الأب جوزيف قوستتر الذي درس الرسم الهندسي. اشترك من السودانيون خمسون عاملا، وقاموا برفع المواد وخط الجير بالرمل وتخميده.

أحضر الإيطاليون الحجر من أمدرمان - غرب قصر الشباب والأطفال اليوم - الجير توصلوا إليه بعد عناء من منطقة شرق الخرطوم على النيل الأزرق.

الطوب صنع له لأول مرة (بيترو أفاتي) بعد زوال ممالك النوبة. صنعة أولا في أمدرمان ولكنه فيما بعد فضل عليه طوبا صنعه في سوبا. هذا البناء ولد في مدينة بيزا المائلة البرج، في عام ١٨٢٨. بقي بيترو في السودان فيما بعد وبني بيت الخليفة في أمدرمان وتزوج سودانية ومات في عام ١٩١٨ رافضا الرجوع إلى إيطاليا.



إرسالية الخرطوم وكنيستها، افتتحت المباني الجديدة التي
بقيت حتى الآن، عام ١٨٥٦، وأضيف إليها قسم الراهبات في
عام ١٨٧٢ (قبرا رايلو وكمبوني إلى يسار الحديقة)

الأرض التي شملها البناء طولها من الشرق إلى الغرب ثلاثمائة وأربعة عشر قدماً، أما العرض من الجنوب إلى الشمال فقد كان ثلاثين قدماً.

عندما انتهت هذه المباني في يوليو عام ١٨٥٦، كانت تشمل سكن القسيسة - سبع غرف ومطبخاً وغرفة أكل - ومدرسة ومخازن وغرفتين شرق المبنى تعملان كنيسة وفرندة مستديرة المداخل.

كلفّت هذه المباني حتى هذه المرحلة نصف مليون فرنك فرنسي. هذا وقد أضيفت إليها غرف أخرى للراهبات بناها (كمبوني) واكتملت في التاسع من يونيو عام ١٨٧٤. كانت مساحة الإضافة واحدا وستين متراً طولاً وخمسة أمتار ونصف عرضاً في الجانب الغربي، وكان بناؤها بالطوب الأحمر والجير والرمل.

الخرطوم والكنيسة الكاثوليكية:

من السهل استنتاج المكانة العالية التي لقيتها مباني الكنيسة وتأثيرها النفسي على عمل القسيسة والمجموعات التي ترزّد المسيحية أن تعمل بينها. إنها أصبحت المبنى الثاني في الخرطوم من حيث جمال البناء، والمبنى الأول من حيث قوة بنائه وصلابته كما برهن على ذلك صموده من عام ١٨٥٦ وإلى يومنا هذا. إن الخرطوم حتى ذلك العهد، وبعده بعبدة سنين، ظلت تعيش في بيوت الطين، وحواشيهما في بيوت القش. لذلك لم يكن من المستغرب أن تنهار نصف بيوت الخرطوم في أمطار عام ١٨٦٦، إلى الحد الذي جعل والي مصر يفكر في نقل العاصمة إلى توتي. يظهر ذلك في الخطاب الذي أرسله والي مصر إلى الحكمدار في السودان حيث يقول: (بوصول إفادته بتاريخ ٢٦ ربيع الأول سنة ١٢٨٣، المتضمن نزول الأمطار الغزيرة في ليلة الثلاثاء الموافق ٢٥ ربيع الأول

سنة ١٢٨٣، وإحداث. أضرار بناحية الخرطوم ولكن بسبب أنها عمت جميع أنحاء السودان بالمامول بإذن الله زيادة المحصولات.. وصل مسامعه الكريمة بأن موقع بلدة الخرطوم منحطة ورطبة من جهة ومن جهة أخرى فإن مساكنها مبنية بالطوب الأخضر بعضها، والبعض الآخر من القش ولذلك يرى نقلها من موقعها الحالي إلى الجزيرة التي أمامها تدريجيا كلما سحت لذلك الفرصة).

إن أرض الخرطوم كانت محددة غربا بالمقرن، وفي هذه الجهة كان النيل يغمر حتى حديقة الحيوان الحالية في ارتفاعه. من ناحية الشمال فإن النيل الأزرق يمنعها من التوسع شمالا. من الشرق فإن المواقع العسكرية كانت تحدد تمددها بمنطقة كبرى النيل الأزرق الحالي. من الجنوب فإن منطقة مستشفى الخرطوم الحالي كان مقابر للمسلمين، وداخلية كرار (غرب كلية طب جامعة الخرطوم) تشكل مقابر المسيحيين التي أنشأها الأب مونتوري.

في هذا الحيز الضيق كانت تقع أحياء الخرطوم: حي الحكمدارية يقع على ضفاف النيل الأزرق وحتى شارع الجامعة الحالي. بهذا الحي القصر والحكمدارية والشونة والترسانة الجديدة وبعض القنصليات.

إلى الجنوب الغربي منه حي المسجد الذي يقع حول مسجد أرباب العقائد وبالقرب من الكنيسة الجديدة. هذا الحي كان أهم حي بالمدينة حيث السوق الإفرنجي والعربي، وكل واحد منهما يتكون من أربعة شوارع.

إلى الجنوب من السوق العربي حي سلامة الباشا، ويسكنه المواطنون الذين هم أقل حفا من سكان حي المسجد، أهم سكانه الدناقلة والنوبة (نوبة شمال السودان).

إلى الشرق من سلامة الباشا حي النوبة، ويسكنه القادمون من جبال النوبة، والمتقاعدون من خدمة الجيش.

بين حي النوبة وحي الترّس (الترس الذي أقيم لحماية المدينة من فيضان النيل الأبيض وسكن حوله مواطنون وأسموه بحي الترّس) يقع أفقر الأحياء وهو حي (هوب ضرباني).

وفي النهاية إلى الشرق من حي الحكمدارية، حي الكارة الذي كان يسكنه العسكر المصريون والسودانيون، وحي الطبجية ويسكنه رجال المدفعية بالجيش. وأخيرا حي بري المحس الذي ظل هناك إلى أن قام الإنجليز بترحيل سكانه إلى البراري الحالية سنة ١٩٠٠، وأقاموا في مكانه سكنات الجيش الإنجليزي.

في وسط المدينة حيان صغيران، الأول مركزه المحطة الوسطى وكان يسمى (فريق السدرات)، الحي الثاني هو (فريق سكنت) ومركزه في مكان البنك التجاري السوداني الحالي.

شاطئ النيل كان مليئا بالحدائق (الجنائن). فإذا بدأنا من الغرب إلى الشرق، فسنجد أن منتزه المقرن العائلي الحالي كان جنينة العظمي، تليها جنينة المعلم جمعة، جنينة الدمشاوي ثم الأوقاف - مكان قصر الصداقة الحالي. إلى الجنوب قليلا جنينة الحاج أحمد الجركوك، إنها كانت محاذية لحلة الدراسة بالمقرن - مكان الأسكله - وفي تلك الحلة - أي الحي كانت للجركوك خلوة يدرس بها ثلاثمائة وستون طالبا وسبع طالبات، بينهن ثلاث من جزيرة توتي. ثم جنينة النور الخبير التي آلت إليه من (الروساب) مع جزيرة ود دكيم (التي تحت كبري النيل الأبيض الحالي). هذه الجزيرة أهداها فيما بعد (ود أبو الروس) ناظر الخط، إلى الحكمدار موسى باشا

حمدي الذي حكم السودان بين عامي ١٨٦٢-١٨٦٥. تلي ذلك جنينة أبي معلا وتقع جنوب الأسكلة. جنينة عامر كانت تقع جنوب جنينة الأوقاف. جنينة إبراهيم خليل باخوس كانت في مكان حديقة الحيوان التي أخلت الآن من حيواناتها.. جنينة الست أخت بولس كانت في مكان الفندق الكبير. تليها جنينة أولاد العقاد، في مكان الكنيسة القبطية اليوم. تليها مباشرة جنينة (ماركي) وقد كانت ملاصقة أيضا لأسكلة بواخر ومخازن الحكم التركي التي كانت في مكان منزل السيد علي الميرغني.

حديقة الكنيسة الكاثوليكية بالطبع كانت تابعة لمباني الكنيسة، وكانت هذه الحديقة تضم مكاتب الري المصري ومنزل مفتش الري المصري وجزءا كبيرا من مكاتب النائب العام اليوم.

جنينة القنصل عاذر كانت في مكان وزارة العدل الحالية. جنينة أخرى للأوقاف كانت في مكان مباني مجلس الوزراء الأول بعد الاستقلال. جنينة البوستان كانت في مكان وزارة الداخلية الحالية.

بعد سراي الحكمدار - القصر الجمهوري حاليا - جنينة بابلوك، في مكان إسطبلات القصر القديم. تليها شرق وزارة الأشغال جنينة الفكي قرّة العينين. وعلى ما يبدو فإن أراضي هذه المنطقة كانت للمحص.

في الجزء الشمالي من وزارة الخارجية كانت تقع جنينة الشيخ قسم السيد صاحب السبيل المشهور. للفكي قرّة العينين جنينة أخرى في مكان الكاتدرائية الكاثوليكية ومدرستها.

في مكان نادي الأطباء كانت تقع جنينة محمد العباسي. جنينة فاطمة بنت الباشا كانت في مكان منزل سلاطين. تليها جنينة كرم الله، فجنينة المستشفى وهي في مكان وزارة الصحة الحالية.

جنينة الفولي في مكان كلية الهندسة بجامعة الخرطوم، وجنينة الحاج
البدري تأخذ جزء من جامعة الخرطوم.

كانت بالخرطوم أيضا عشر مترات (المترة هي بئر واسعة وليست
بعيدة عن النهر لذلك فهي ليست عميقة، وبها ساقية ترفع المياه إلى
الأرض لزراعتها.. السوداني يجمع كلمة مترة على مترات ومتر).

إنتاج المترات كان كبيرا من الليمون واللائنج والموز والتين
والتمور والحناء. أصحاب هذه المترات كانوا:

١- جورج بك الحكيم: وكانت في مكان الكنيسة الإنجليزية التي
ضمت للقصر الجمهوري لأسباب أمنية.

٢- عويضة بك: وكانت في الجزء الغربي من الميدان الذي يقع
جنوب القصر الجمهوري.

٣- المدير أبو سن: بجوار بنك الخرطوم على شارع الجامعة.

٤- عبد السلام الشامي: حلة السدرات، وهي المحطة الوسطى.

٥- أبو السعود: شمال جامع الخرطوم.

٦- المفتي شاكرا: السوق الإفرنجي منطقة رئاسة بنك النيلين.

٧- بابكر الجركوك: مكان الجمعية التشريعية سابقا، والآن مجلس
ولاية الخرطوم ومحكمة استئناف الولاية.

٨- أبو دلوته: أمام وزارة العدل.

٩- حسن مسمار: غرب ميدان الأمم المتحدة مباشرة.

١٠- غطاس: في الجزء الجنوبي من وزارة الخارجية الحالية.

كنيسة الأقباط بالخرطوم:

على ما يبدو أن استمرار الكاثوليك في أعمالهم الدينية في السودان قد أثار حفيظة بقية المناهج الدينية المسيحية التي لها تبع في السودان.

رغم أن الأقباط بدأوا الدخول إلى السودان للعمل منذ الثلاثينيات إلا أن الكنيسة المصرية لم تدخل إلى السودان للعمل فيه إلا بعد بداية الخمسينيات. إن القوم إلى السودان كان مصدر خوف لكثير من المصريين مسلميهم ومسيحييهم.

هذا بالطبع لا ينكر على هذه الكنيسة تاريخها القديم في البلاد. الديانة المسيحية في النوبة تبعت منها دولتان - نبتة وعلوه - الكنيسة القبطية الأرثوذكسية أولاً ثم لحقت بهما المقررة. وهم اليوم كثيرون الاعتزاز بأعمال الفرقة البولندية الأثرية (١٩٦١-١٩٦٤) واكتشافها لكاتدرائية فرس التي أقيمت فوق قصر الملك وبها الغرفة الجنوبية من الهيكل المعروفة بغرفة المعمدان، حيث صورة ضخمة للمسيح وعلى جانبيه ملاكان يركعان له، وعلى الجانب الأيسر قائمة الأساقفة الذين خدموا في مدينة فرس (الينبوع الحي صفحة ٢٨ اليوبيل الفضي للأنبا شنودة الثالث).

على كل أقاموا أول وآخر كنيسة لهم خلال الحكم التركي في الجانب الشرقي من مباني الإدارة المركزية الحالية بعد إلحاح الأقباط الذين قدموا إلى السودان للعمل في الإدارة المصرية في أقسام المحاسبة. عين لهم البابا بطرس أول أسقف للسودان يدعى الأنبا دميانوس. كان دميانوس راهباً بدير الأنبا أنطونيوس، فأسس كنيسة الخرطوم وبقي بها إلى أن توفي ودفن بها. عين البابا بطرس الجاولي القس جرجس الأنطوني خلفاً له وأسماء الأنبا غبريال. استطاع هذا الأنبا مقاومة أمراض السودان

وعاصر ثلاثة بابوات بالكنيسة المصرية هم: بطرس الجاولي، وكيرلس الرابع وديمترىوس الثاني.

هذا وقد دفن الأنبا غبريال أيضا بالخرطوم. لم يجد بعد ذلك البابا كيرلس الخامس شخصا يقبل العمل بالسودان إلا في السابع عشر من أكتوبر عام ١٨٧٨، حينما استطاع تعيين الأنبا مكاريوس أسقفًا على السودان. بقي الأخير بالسودان إلى أن اشتدت الثورة المهدية، ففعل كنيسة وترك السودان مع قسسته في عام ١٨٨٤. إن مكاريوس هذا قد مات في الأول من نوفمبر عام ١٨٩٦ ودفن في دير أبي سيفين بمصر القديمة.

كنيسة البروتستانت:

الدعاية التي بثها كنوبلخر في أوربا عن إمكانيات التبشير الضخمة بالسودان، جعلت كنيسة بروسيا البروتستانتية تأتي على عجل وتتسنى بسرعة مذهلة كنيسة وديرا ومدرسة في بداية الخمسينيات من الحجر الرملي والطين في الجانب الغربي من المحطة الوسطى بالخرطوم بين القنصلية المصرية والشارع الذي يقع شرقها. ولكن بنفس السرعة أقفلوا كل أعمالهم وباعوا ممتلكاتهم وهربوا من السودان بعد موت اثنين من رهبانهم بالمalaria. بقية آثارهم لا زالت باقية في حيطان المتاجر التي تقع شرق القنصلية المصرية بالخرطوم وتمتد من الشمال إلى الجنوب وأمامها فرندة بطول المتاجر.

القنصلية النمساوية بالخرطوم:

بعد وصول القنصل النمساوي (كونستانين رايتز) إلى الخرطوم في الحادي والعشرين من مارس ١٨٥١ بدأ مباشرة في البحث عن مكان مناسب لإنشاء قنصلية. اهتدى إلى ذلك سريعا بشراء منزل كان يملكه

رجل فرنسي يدعى (برن رولت) ويقع في داخل مباني النائب العام الحالية. ثمن المنزل بمبانيه ألف وثلثمائة ريال قوшли - أي ماريا تريزا النمساوي. قام بعمليات الفرش والترميم سريعا جدا. وبعد وصوله بتسعة أيام فقط، دعى سكان الخرطوم من الأوربيين إلى حفل رفع العلم النمساوي على القنصلية. وفي اليوم الثاني كان يجد العمل في إقناع الحكمدار بإنهاء احتكار التجارة بالنيل الأبيض، لأنها منافية لاتفاقية عام ١٨٣٨ المعقودة بين الباب العالي والقوى الأوربية بخصوص حرية التجارة.

بالإضافة إلى مشروع المستعمرة كان يفكر في تصدير المطاط السوداني إلى بلاده. وفي حل المشاكل التي قد تعترض التبشير الكاثوليكي بالسودان. هذه هي الأعباء التي أوكلت حكومة النمسا قنصليتها بالخرطوم القيام بها. إن النمسا اقتنعت تماما أن الكنيسة الكاثوليكية تستطيع أن تسلمها مستعمرة في السودان إذا وجدت الدعم الكافي من القنصلية. وهذا - في رأيهم - أفضل من الحصول عليها بإرسال جيوش والقيام بحروب تقتل أبناءهم، كما فعلت الدول الأوربية الأخرى.

ولكي يقع القنصل هذا بلاده بإمكانية الملاحة على نهر النيل حتى الإسكندرية، اشترى قاربين من مائه الخاص وشحنهما بمائتي حيوان. أبحر القاربان يوم ٢٣ أغسطس ١٨٥٢ ووصلا إلى الإسكندرية بعد معاناة ضخمة، في السابع عشر من أكتوبر من نفس العام. هذه الحيوانات أرسلت من الإسكندرية إلى حديقة حيوان قصر الشنبرون الإمبراطوري في فينا.

ضحايا التبشير:

بين عامي ١٨٥١-١٨٥٧ مات نصف المبشرين الكاثوليك الذين دخلوا السودان. كان من الطبيعي أن يتوقف سيل القادمين للدعوة

المسيحية الكاثوليكية. ولكن الذي حدث كان العكس. كانت الأعداد تزداد باستمرار، والمجموعة التي في خط المواجهة بالسودان تستمر في طلب المزيد من المال والرجال وفيما بعد أضافوا المبشرات.

في نهاية عام ١٨٥٧ رجع كالعادة الأب كنوبلخر إلى أوربا لكي يعيد مطالبه.. المال وأضاف النساء. في طريقه إلى أوربا التقى في مدينة أسوان بمجموعة من القادمين تتكون من القسيسة: بلترام، دال بوسكو، ميلتو، أوليوني، دانيال كمبوني والشماس زيلي. رحب بهم هناك واستمروا في رحلتهم إلى الخرطوم حيث وصلوها في الثامن من يناير عام ١٨٥٨.

التبشير بالدينكاوية:

من هذه المجموعة بقي الأب دال بوسكو وحده في كاثرائية الخرطوم التي أسميت (إرسالية إفريقية الوسطى)، وتقدم البقية بالنيل الأبيض إلى مركز (الصليب المقدس) مع الاب كيرشنر.

في أرض الدينكا جمعوا ألفي كلمة دينكاوية وكتبوها في قاموس، ثم كتبوا كتاب تبشير باللغة الدينكاوية التي جمعوها، يتخذ أسلوب السؤال والجواب. إن القسيسة قد قضوا كل وقتهم بين الدينكا في نشر المسيحية.

لم يستمر الأمر طويلا دون ضحايا بأرض الدينكا. ففي السادس والعشرين من مارس ١٨٥٨ سقط الأب أوليوني. الأب دانيال كمبوني - الذي تعتبره الكنيسة الكاثوليكية حصانها الأشهب - أقعدته حمى الملاريا تماما عن الحركة فأعيد إلى إيطاليا.

أتباع القديس فرانسيس:

على ما يبدو أن الموت والطقس العدائي بالسودان قاد الكنيسة إلى أن

تطلب من أتباع القديس قرانسس (الفرانسسكيين) وهم كاثوليك أيضا،
الاشتراك في التبشير بالسودان. هذه المجموعة من القسوسة عراة الرأس،
اللابسين شتاء وصيفا صنادل الجلد البدائية وفوق أجسادهم ما اخشوشن
من جبيب الصوف، قدمت أول دفعة منهم في الثاني عشر من سبتمبر عام
١٨٦١. وسريعا كانت تسمع صلاة قديسهم الشهيرة من ثلاثة وثلاثين قسا
في الشلال والخرطوم وما جاورهما، إنها تقرأ:

رب، اجعلني آية لسلامك

حيث الكراهية دعني أزرع المحبة

وحيث الشك أزرع الإيمان

وتنتهي:

إنه في عفونا أن يعفي عنا

وفي موتنا أن نولد للحياة الأبدية.



بعض من الآباء الفرانسيكيين الذي تعاونوا مع كمبوني
من اليسار إلى اليمين: الأب روليري، الأب كمبوني، الأب كارشيريري
والأب فرانسيسكيني

هذا العدد الكبير من القسوة رفع الروح المعنوية عند الباقين السابقين، ولكن إلى حين.. وحتى مع ارتفاع عدد أتباع فرانسيس إلى ثمانية وخمسين، فإن اثنين وعشرين منهم ماتوا في ظرف سنتين.

إذا أضفنا إلى هؤلاء من مات من الأوائل فقد بلغ عدد الضحايا حتى عام ١٨٦٣ ستة وأربعين قسا، بخلاف الذين أسرعوا راجعين عندما ازدادت عليهم.

دانيال كمبوني:

دانيال كمبوني أحد أكثر الذين استطاعوا مقاومة جو السودان وأمراضه، ولد في الخامس عشر من مارس عام ١٨٣١، بقرية تدعى (ليمونه) على بحيرة قاردا بسهول إيطاليا الشمالية. عاش هذا الطفل في كنف عائلة تعمل بالزراعة ومتدينة. سريعا لحق بتدنيهم وركع لتمثال مريم العذراء بمنزله. وما أكثر ما وجده العائدون من مزارعهم وهو يعتلي ظهر صخرة أو مقعدا ويخطب في الناس متوهما أنه قس كنيسة أبرشيته.

ذهب إلى مدرسة قريته الابتدائية، وبعدها التحق بكلية (دون مازا) للدراسات الفقهية.

أول مرة سمع فيها عن السودان والتبشير فيه كان في عام ١٨٤٩، عندما عاد الأب فنكو إلى إيطاليا من السودان وتحدث إلى طلبة كلية (دون مازا) عن العمل بالسودان، وخطورة طقسه وأمراضه، وأهمية التبشير فيه. دانيال ابن الثمانية عشر عاما مع قلة من زملائه تقدموا إلى مدير الكلية طالبين الالتحاق بالعمل بالسودان بعد تخرجهم.

في الحادي والثلاثين من ديسمبر عام ١٨٥٤ نصب دانيال كمبوني قسا. وفي الأول من سبتمبر عام ١٨٥٧ كان يودع في بقية اخوته السبعة وأمه متوجها إلى إفريقيا للتبشير فيها. وفي العاشر من سبتمبر كان يركب الباخرة من ميناء (تريست) المزدحم، متوجها إلى الخرطوم، حيث أرسل مباشرة إلى مركز الصليب المقدس. بقي كمبوني - كما أسلفت - عاما هناك، ورغم قوة جسمه ومناعته، اضطر بعد العام الأول إلى الرجوع إلى أوروبا مستشفيا.

التبشير في إفريقيا للإفريقيين:

المرض وصعوبة الحياة أقنعت هذا القس الشاب بأن يصل إلى نظرية جديدة للتعامل مع الظروف الإفريقية القاسية، بأن يعلم مجموعة من الرساليين والرساليات الإفريقيين القيام بعملية التبشير. ورغم أن هذه النظرية هي فكرة أكثر من كونها فعلا، إلا أنه بدأ الدعاية لها.

روح كمبوني لفكرته التي ترمي إلى إنشاء مدارس لاهوتية لتدريس الإفريقيين والإفريقيات عمليات التدريس والتبشير على أن يتم ذلك في دول مجاورة - كمصر مثلا - حيث الجو مناسب للإفريقيين والقادمين من أوروبا لتدريسهم وتنصيرهم. حتى إذا رجع الإفريقيون إلى بلادهم أمكنهم التبشير ومقاومة الجو الذي نشأوا فيه.

عرض كمبوني فكرته على جميع المحافل الدينية والطوعية والتبشيرية، وأقنع البابا بولس التاسع بفكرته، ثم قضى عشرة أعوام بين علمي ١٨٦٠ و ١٨٧٠ يقابل الملوك والحكام بأوروبا، ويعقد المؤتمرات والندوات وينشئ في اللجان التي قامت بترجمة أقواله إلى جميع اللغات الأوروبية.

في فرنسا تعرف على الكاردينال (ماسايا) القاصد الرسولي إلى

أثيوبيا، فقدمه الأخير إلى كل أصحاب النفوذ في فرنسا.

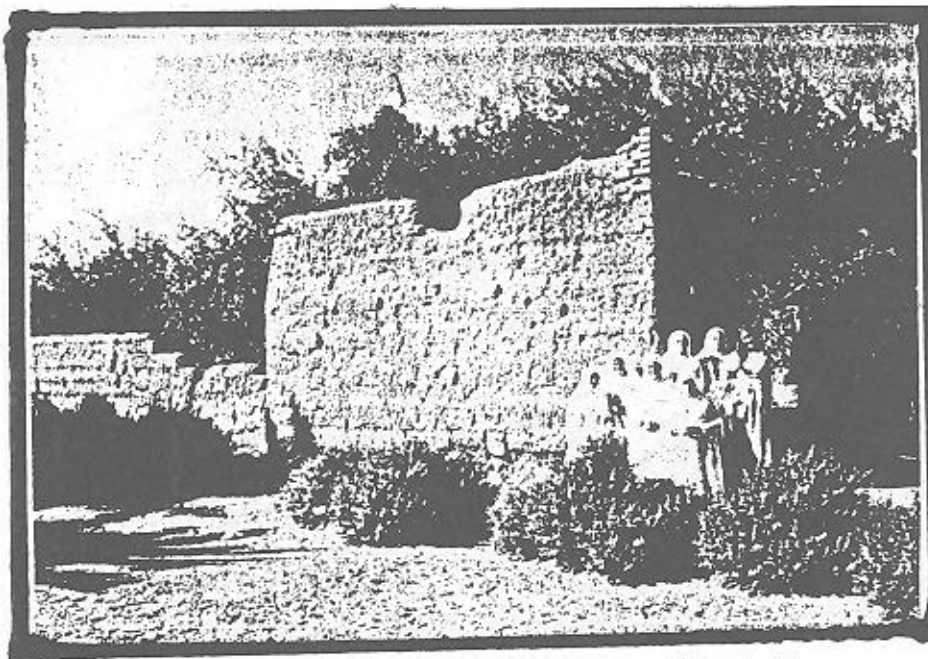
في إيطاليا الكاردينال (كانوسا) قدمه إلى جميع مطارنة إيطاليا، ثم فيما بعد قدمه إلى كل مطارنة مجلس الفاتيكان.

في النمسا ساعدته كثيرا جمعية (مريم) التي أنشأها الدعاة الأوائيل. ولكن لسوء حظه فإن مجلس الفاتيكان قد تم إيقافه نتيجة الحرب التي اشتعلت في العشرين من سبتمبر عام ١٨٧٠.

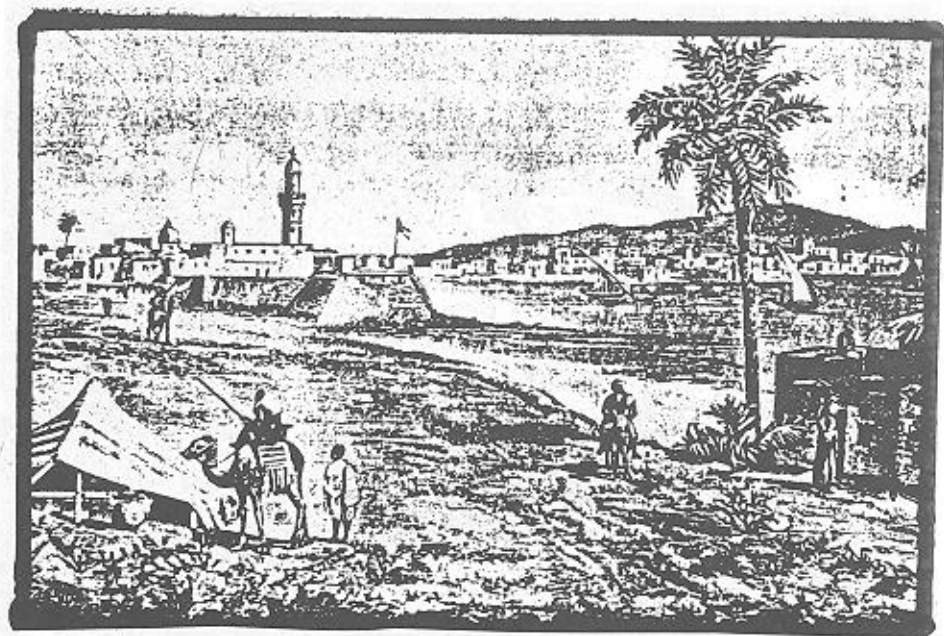
المحاولة الثالثة:

في الخادي عشر من يونيو عام ١٨٧٢ عين البابا دانيال كمبوني مساعد مطران لإفريقيا الوسطى بالخرطوم اعترافا بخطته التي أقنع بها رجال الدين والملوك بكل القارة الأوربية، من موسكو إلى مدريد. وعليه استمر في تنفيذ الجديد من برامجه وتدعيم القديم. كان كمبوني قد أنشأ معهدين بالقاهرة في عام ١٨٦٧ واحدا للرجال والثاني للنساء. أيضا استطاع استقدام إفريقيين وإفريقيات من السودان للتدريب فيهما. وقد فتح أيضا معهدين للقسسة والشماسين والراهبات الذين سيكونون كادر المعلمين والمعلمات للمعهدين، ولمعاهد أخرى نوى إقامتها في الشلال وغيره. بعد ذلك هرع إلى الخرطوم مع مجموعة جديدة من القسوسة فوصلها في الرابع من مايو عام ١٨٧٣. وبهذه المجموعة الجديدة افتتح مراكز تبشير أخرى في أسوان، وادي حلفا، بربر، سواكن، الأبيض والدنج. وفي كل هذه المراكز بنى مساكن القسوسة وبعض المدارس الصناعية وأماكن للعبادة.

في الملابس بالقرب من الأبيض أنشأ مزرعة تجريبية وكنيسة، وفي الأبيض والخرطوم أنشأ أول مدرستين للبنات في السودان.



حيطان إرسالية بربر التي بناها كمبوني (الصورة أخذت عام ١٩٧٩)



بربر في عام ١٨٧٨

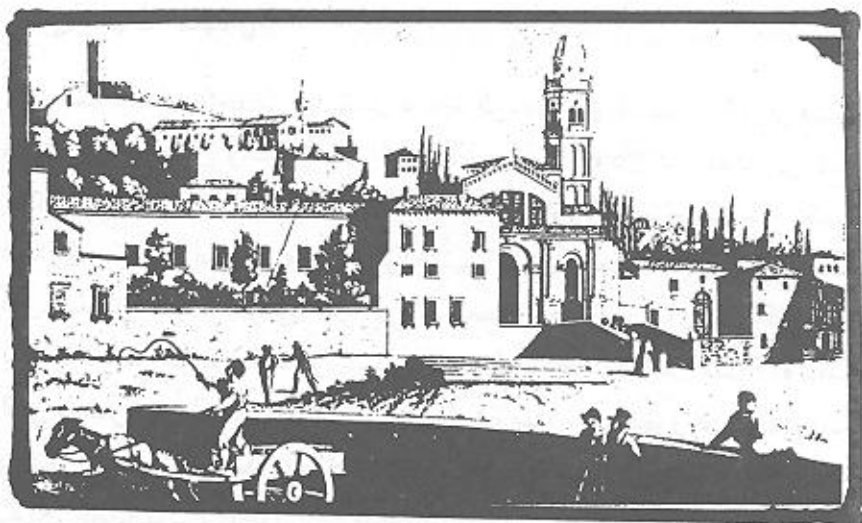
جمعية أمهات السودان:

نشاط الأب كمبوني لم يشمل دعوة الرجال من القسوسة والرهبان للعمل في السودان ومنازلة أمراضه وحرارته فقط، بل كان يفكر في استقطاب الراهبات للقدوم والعمل بين النساء. إن الفكرة لم تكن فكرة تقليدية يمكن عرضها وتوقع مردود منها، ولكن ربما كانت هذه هي إحدى مقومات شخصية كمبوني. كل شيء بالنسبة له كان ممكنا. دعى فتيات إيطاليا للانخراط في التبشير الديني بالسودان، غير متجاهل لذكر الأخطار التي سيتعرضن لها في صحارى عليهن قطعها على ظهور جمال لم يرينها في حياتهن، وفي حرارة لا قبل لهن بها، وفي مناخ يحمل قتلة ثلاثة: الملاريا.. والتيفويد.. والدسنتريا.

بالطبع لن يرغب عن الذكر أن اللاتي كان يعرض عليهن الخدمة في السودان كن ممن سقين من الفكر المسيحي ومتأثرات بدعوة المسيح (ليس أنتم اخترتموني، بل أنا اخترتكم وأقمتمكم لتذهبوا وتأثروا بثمر، ويدوم ثمركم. لكي يعطيكم الأب كل ما طلبتم باسمي. إنجيل يوحنا، الإصحاح ١٥، العدد ١٦).

وعلى ما يبدو أن كمبوني لم يقرع في طبل أجوف، فتقدمت في عام ١٨٧٢ ثلاث فتيات متبرعات للعمل في إفريقيا الوسطى بين أهالي السودان. ومن الممكن تصور الذهول الذي أصاب عائلات المتقدمات، والحواجب التي ارتفعت من قبل عائلاتهم. ومن غريب الصدف أن تشترك الثلاث فتيات في أسمائهن الأولى وهن ماريّا كاسبي، ماريّا اسكدولا وماريا كولبي.

وبالماريات الثلاث تم إنشاء أول جمعية أسمت نفسها (جمعية الراهبات أمهات السودان).



على يمين كنيسة القديسة مريم ان أورفانو بمدينة فيرونا
الإيطالية، أسس كمبوني معهد الراهبات سنة ١٨٧٢

وفي دير أبيض الطلاء في مدينة فيرونا الإيطالية يتكون من طابقيين و برج معبده الخماسي الشكل، وأرضه التي تحجبها عن الرؤيا حديقة عالية الأشجار، كانت رئيسة الدير تستقبل القادمات للمعهد الجديد الذي أنشأه كمبوني لتدريب الفتيات الإفريقيات للقيم بالتبشير بالسودان. مكان المعهد الأول كان في (مونتوريو فيرونيز) عندما افتتح في الثامن من يناير عام ١٨٧٢، ولكن سريرا نقل إلى جوار كنيسة (سنت ماري إن أوركانو)، أسمى المعهد (معهد التقيات الإفريقيات) ولكنه عرف باسم (معهد نقريزيا). في نفس العام التحقت به (ماري بلروني) التي أصبحت مديرة له سبعة وعشرين عاما. وبعد مرور قرن على افتتاح الدير بلغ اللاتي درسن فيه ألفين ومائتي راهبة عمل أكثرهن بالسودان، والبقية في أنحاء متفرقة بإفريقيا والأمريكتين. بعضهن كن إيطاليات وبعضهن فرنسيات، وشق آخر جاء من سوريا ولبنان.



الراهبة ماريا بلزوني أول رئيسة لجمعية
(أمهات إفريقيا النقيات) التي أنشأها كمبونى.

مطران إفريقيا الوسطى:

لكل النشاط التبشيري الذي قام به دانيال كمبوني في السودان، ولرحلته إلى أوربا لشرح أعماله ومشاريعه للبابا ولقادة الفاتيكان، ولنجاحه في إقناع رجال البر لدعمه بالمال، ولتمكنه من إقناع عدد كبير من المبشرين والمبشرات للعمل في مناطق إفريقيا الصعبة، عينه البابا في الثاني عشر من أغسطس عام ١٨٧٧ أول مطران للكنيسة الكاثوليكية بالسودان. وفي يوم قليل الشمس، كثير البرد - الخامس عشر من ديسمبر عام ١٨٧٧ - كانت الباخرة (أريب) تقف على رصيف ميناء نابولي الإيطالي وفوقها المطران كمبوني بعيونه الواسعة، وجسمه الممتلئ ولحيته المستديرة وعلى رأسه كوفية صوفية ملونة، يقف وحوله عشرة من القساوسة وخمس من الراهبات الشابات وهن: تريزا غريقوليني، جوزفينا اسكندولا، فيتوريا باغانيني، ماريا كاسبي وكنستا كورسي.

وقف الستة عشر رجلا وامرأة يشيرون بأيديهم مودعين زملاءهم وأهلهم وعشيرتهم الذين تلفحوا بالملابس الثقيلة، وخلفهم سهول نابولي التي غطتها طبقة من الجليد السميك. أما ما كان يختلج في صدر كل مودع ومودعة فقد كان شعورا مكسوا بخوف قوي في أن هذا سيكون الوداع الأخير لهذه المجموعة.

في الثامن والعشرين من يناير عام ١٨٧٨، وبعد استقبالات متعددة بواسطة رجال الكنائس والخبديو والمكتشف المعروف (هنري ستانلي) كانوا يودعون القاهرة في رحلتهم جنوبا.

الأخبار المزعجة:

ما كادوا يصلون إلى أسيوط حتى سمعوا آخر أخبار إيطاليا.. مات البابا بولس التاسع. عندما وصلوا إلى أسوان. التقوا الجنرال غردون متوجها إلى مصر وحاملا لهم أنباء المجاعة التي ضربت البلاد بسبب قلة الأمطار وسوء الإدارة التي نهبت جميع إنتاج السودان الزراعي من السنة الفائتة.

بعد رحلة مزعجة عبر صحراء العثوم، غشيتها العطش والإرهاق والحمى، وهم على ظهور جمال أكثرهم رأها لأول مرة، وصلوا إلى بربر في السادس والعشرين من مارس ١٨٧٨. نزلوا في منزل من طين كان قد بناه كمبوني قبل عامين لكي يكون إرسالية.

في الثاني عشر من أبريل كانوا بالخرطوم، لكي يجدوا أن الذي حدث كان أضعاف ما صورته غردون لهم. إن جزء كبيرا من سكان الخرطوم والبلاد قد قضى نحبه جوعا، وبقيتهم تعرضوا لمحاق عظيم.

الانتشار:

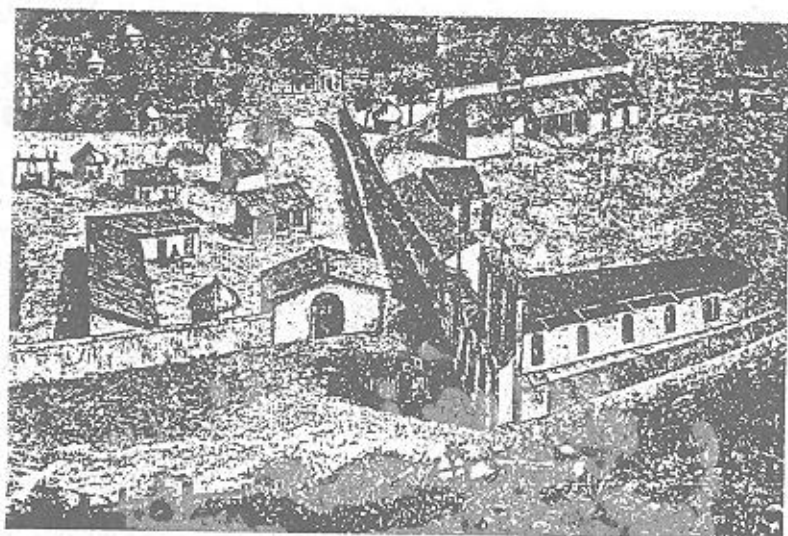
ما كاد يصل هذا الفوج إلى الخرطوم، حتى أعقبه فوج آخر من المبشرين والمبشرات، فتقدم الفوج الأول إلى الأبيض والملبس والدنجل. إن الجفاف في تلك المناطق رغم سوءه من الناحية الاقتصادية والصحية والاجتماعية، إلا أنه خدم التبشير في تلك المناطق. فالجائع قد يكون أسهل انقيادا لفكرة دينية تخالف وثنيته، طالما كانت تسهل عليه إلى حد ما سبل العيش ومقاومة الموت.

من أكثر المناطق التي تأثرت بالجفاف مدينة الأبيض التي كانت

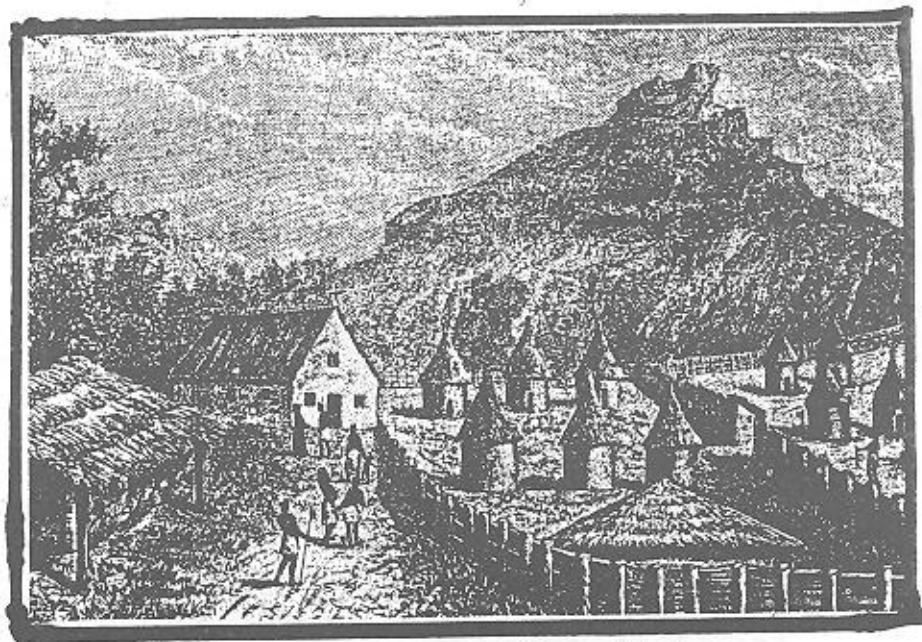
عاصمة السودان الاقتصادية. سكانها بلغوا مائة ألف نسمة. يصل إلى سوقها الصمغ - وفي السنوات غير العجاف - ريش النعام من دار حمر، والتمر هندي والسنة مكه من بارا وما جاورها. وتأتيها الذرة بكميات كبيرة من المناطق التي حولها، والمواشي والجمال من دار الكبابيش ودار حمر وبني جرار ودار حامد. كل ذلك بالإضافة إلى البطيخ وحبه والسمسم.

إن تراء المدينة جعل من الأبيض أكبر سوق سوداني تؤمّه أعداد كبيرة من المصدرين الأجانب الأوروبيين والمصريين.

يسكن المدينة عدد كبير من التجار السودانيين الكبار مثل: الياس باشا أم برير، الحاج محمد ود بانقا، أحمد بك دفع الله، محمد ود العريق، الحاج خالد، إبراهيم ود عدلان وغيرهم. بالإضافة إلى هؤلاء صغار المزارعين والعمال والوسطاء. إن ضخامة المدينة والجوع الذي ضربها دعا شقا كبيرا من سكانها لطلب العون من الكنيسة الكاثوليكية والانضمام إلى تعاليمها. ولكن سرّيا نصبت الأموال التي جاء بها المطران واضطر للرجوع إلى أوروبا لطلب المزيد.



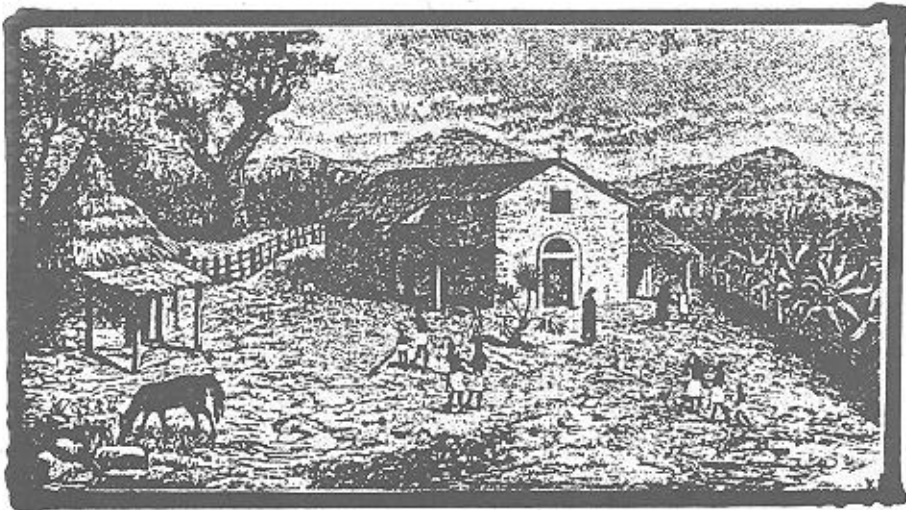
كنيسة الأبيض ومركز التعليم المسيحي من مؤسسات كمبوني في يناير ١٨٧١



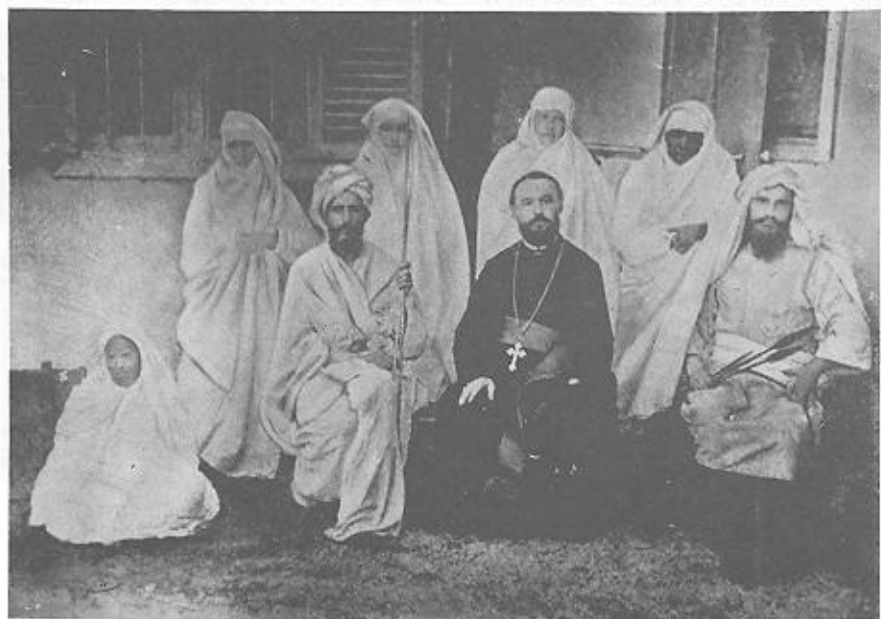
إرسالية وكنيسة الدلنج افتتحتا في عام ١٨٧٤



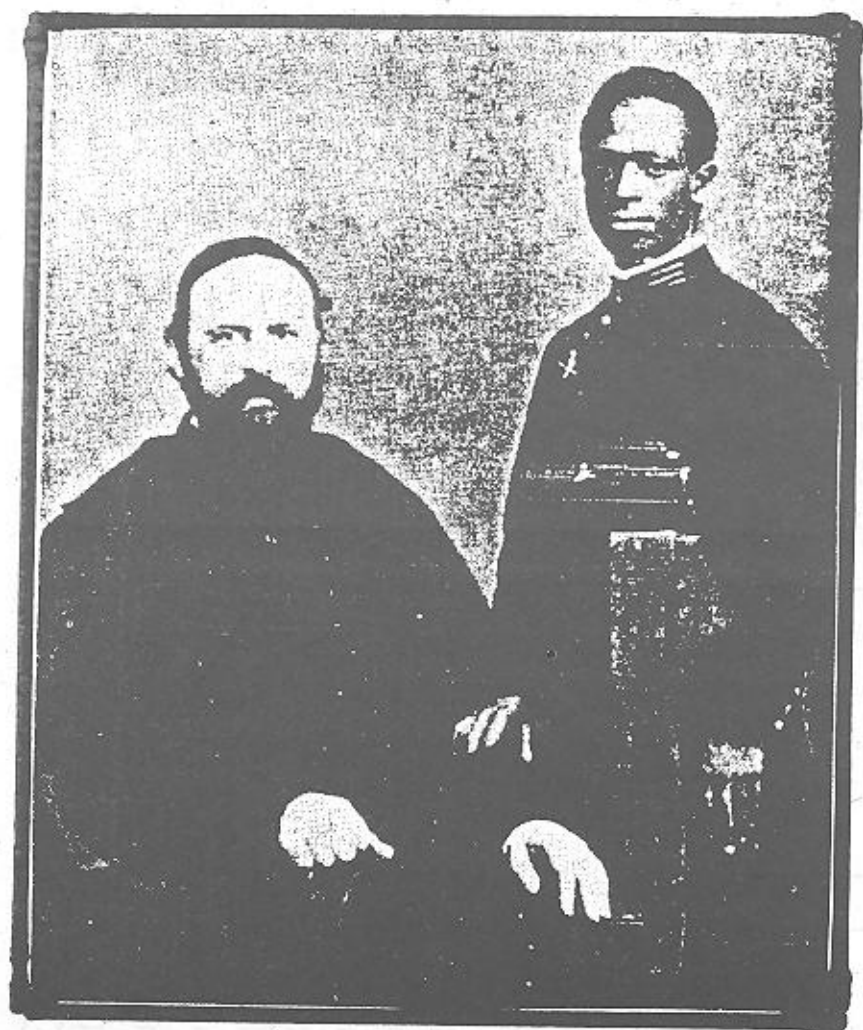
بعض الراهبات اللاتي كن بالسودان عام ١٨٧٧
الواقفات من اليسار: كونستا كورسي، فيتوريا باقانييني وجوسبا اسكاندولا
الجالسات من اليسار: تيرزيا قريقوليني وماريا كاسبي



كنيسة ومزرعة الملبس بالقرب من الأبيض من تأسيس كمبوني



القاهرة: سوقارو مع بعض الراهبات اللاتي كن إبان المهديّة بالسودان



دانيال كمبوني مع السوداني دانيال سرور الذي أكمل دراسته
الكهنوتية في كلية المجمع لنشر الإيمان وأصبح كاهنا في روما

في السابع والعشرين من نوفمبر عام ١٨٨٠ كان كمبوني مبحرا مرة أخرى من نابولي إلى الإسكندرية مع مجموعة جديدة. في الثامن والعشرين من ديسمبر ١٨٨٠ غادروا القاهرة إلى الخرطوم عن طريق سواكن. هذه المجموعة تكونت بالإضافة إلى كمبوني والراهبات الجدد من ثلاثة قساوسة هم: جوهان دختل وفرانس بمزوني والأب الذي أصبح مشهورا جدا في السودان نسبة إلى كتابه (عشر سنوات سجننا في معسكر المهدي) الأب النمساوي أوروالد. والجدير بالذكر إن هذا الأب لم يستطع الخروج من السودان نسبة إلى اشتعال الثورة المهدية، وبقي بأمدردمان إلى أن استطاع الأركشوب سوقاروا توقيع اتفاقية مع أحمد حسن العبادي من عرب باشري من منطقة السيالة بمديرية الحدود لتهريب أوروالد من السودان إلى مصر ومعه اثنتان من الراهبات في مقابل مائة جنيه بضاعة يستلمها من الشيخ عبد الهادي في كورسكو مع عشرين جنيها مقدما، وعند إحضار المهرين يدفع الأركشوب مائة جنيه عن كل رأس تم تهريبه من أمدردمان إلى مصر. تم الاتفاق المكتوب يوم ٩ يوليو ١٨٩١.

تمت عملية التهريب فعلا للأب أوروالد والراهبة كترينا شنكريني والراهبة اليزابا فنتوريني وفتاة سودانية تدعى عديلة كانت قد ولدت في كنيسة الخرطوم، ووصلوا كورسكو في الثالث عشر من ديسمبر ١٨٩١. أوروالد عاد إلى السودان في عام ١٩٠٠ وبنى كنيسة الكاثوليك بالمسالمة بأمدردمان، وتوفي فيها في السابع من أغسطس عام ١٩١٣ ودفن بمقابر المسيحيين، ولكن قبره نبش وأخذت الكنيسة بقياه إلى الخرطوم في الخمسينيات.

أعود فأقول إن كمبوني وصل إلى الخرطوم، وفي يونيو من عام ١٨٨١ رحل إلى غرب السودان. عاد المطران سريعا إلى الخرطوم بعد أن هذه المرض والعواصف التي لقيها إبان رحلته تلك، وسقوطه من ثاقله كانت تنقله. عندما عاد إلى الخرطوم زاد علله في شهر سبتمبر من ذلك العام فقدان مجموعته لعدد كبير من القسس والراهبات. استكان للمرض إلى أن لفظ أنفاسه الأخيرة في العاشر من أكتوبر عام ١٨٨١ بالغرفة الغربية من كنيسة الكاثوليك بالخرطوم، وهي مباني ولاية الخرطوم الحالية (الخرطوم، د. أبو سليم، صفحة ٥٥) أصبحت الآن هذه المباني مجلس الوزراء الاتحادي. دفن كمبوني في حديقة الكنيسة جنوب شرق قبر الأب رايلو، شمال رواق مدرسة الكنيسة بثلاثين مترا وعلى ميدان أخضر.

الثورة المهدية

الثورة الإسلامية:

إن رحيل المطران الكاثوليكي قد سبقته بتسعة وخمسين يوما معركة كان تأثيرها على تاريخ السودان والتبشير المسيحي به كبيرا. ففي الثاني عشر من أغسطس عام ١٨٨١ استطاع جيش يتكون من ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا من أنصار الإمام المهدي - الذي دخل فعلا في نزاع مع الحكومة بعد إعلانه أنه المهدي المنتظر - أن يلحق هزيمة نكراء بجيش الحكومة. كان جيش الحكومة يتكون من ثمانمائة وخمسين جنديا يقودهم أبو السعود العقاد، وهو أحد تجار الرقيق المصريين، وكان غردون قد أخرجته من السجن بعد اتهامه بالقتل (غردون الخرطوم، تيرن بول صفحة ٥٠، فولكستون).

التبشير المسيحي والإسلام:

رغم أن الثورة المهدية لم تقم ضد أي مسيحي أو تبشير مسيحي في السودان، إلا أنها قامت على مبادئ إسلامية بالضرورة لن تسمح بتبشير غير إسلامي.

إنه ليس من العسير فهم لماذا سمحت الدولة التركية المصرية للمسيحية بالتبشير في السودان، في زمن كانت فيه الدولة العثمانية هي الخلافة الإسلامية. إن الضعف الذي أصاب تلك الخلافة ونشأة قوة عالمية تنتمي إلى الدين المسيحي كان عاملا. ثانيا فإن مصر التي كانت شكليا تحت السلطة العثمانية، لم تكن قوية التدين وحكامها لم يكونوا من أصول عميقة الإسلام أو من أصول عربية. ثالثا فلا أحد من حكام مصر كان يعتقد في استمرارية بقاء أوربي بالسودان، وخصوصا جنوبه حيث من الممكن أن تكسب الكنيسة تأييدا.

الثورة الإسلامية:

إن رحيل المطران الكاثوليكي قد سبقته بنسعة وخمسين يوما معركة كان تأثيرها على تاريخ السودان والتبشير المسيحي به كبيرا. ففي الثاني عشر من أغسطس عام ١٨٨١ استطاع جيش يتكون من ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا من أنصار الإمام المهدي - الذي دخل فعلا في نزاع مع الحكومة بعد إعلانه أنه المهدي المنتظر - أن يلحق هزيمة نكراء بجيش الحكومة. كان جيش الحكومة يتكون من ثمانمائة وخمسين جنديا يقودهم أبو السعود العقاد، وهو أحد تجار الرقيق المصريين، وكان غردون قد أخرج من السجن بعد اتهامه بالقتل (غردون الخرطوم، تيرن بول صفحة ٥٠ فولكستون).

التبشير المسيحي والإسلام:

رغم أن الثورة المهدية لم تقم ضد أي مسيحي أو تبشير مسيحي في السودان، إلا أنها قامت على مبادئ إسلامية بالضرورة لن تسمح بتبشير غير إسلامي.

إنه ليس من العسير فهم لماذا سمحت الدولة التركية المصرية للمسيحية بالتبشير في السودان، في زمن كانت فيه الدولة العثمانية هي الخلافة الإسلامية. إن الضعف الذي أصاب تلك الخلافة ونشأة قوة عالمية تنتمي إلى الدين المسيحي كان عاملا. ثانيا فإن مصر التي كانت شكليا تحت السلطة العثمانية، لم تكن قوية التدين وحكامها لم يكونوا من أصول عميقة الإسلام أو من أصول عربية. ثالثا فلا أحد من حكام مصر كان يعتقد في استمرارية بقاء أوربي بالسودان، وخصوصا جنوبه حيث من الممكن أن تكسب الكنيسة تأييدا.

إن كنيسة بروسيا البروتستانتية قد حاولت التبشير وأنشأت كنيسة ومدرسة وديرا في الخرطوم - العاصمة - ولكنها فشلت في مقاومة الجو والأمراض، فمات بعض قسستها وهرب من استطاع، وبقيت بعض مبانيها إلى يومنا هذا تشكل مربعا من المتاجر بوسط الخرطوم (الخرطوم، أبو سليم صفحة ٣٩، دار الجيل بيروت).

أغلب الظن أن أحدا من المصريين لم يتصور نجاح تبشير مسيحي بين الوثنيين في السودان، كما أن التبشير بين المسلمين لاعتناق المسيحية سيكون ضربا من عدم الجدوة.

ولفهم لماذا قامت الثورة المهدية، فهذا يرجع إلى منبت الحكم التركي المصري الذي وجدته الكنيسة الكاثوليكية بالسودان ونشأت تحت حكمه.

الثورة المهدية:

النائر الإسلامي محمد أحمد المهدي، ولد بجزيرة لبيب بدنفلا في ١٢ أغسطس عام ١٨٤٤، ودرس العلوم الإسلامية والعربية والتصوف على أيدي علماء مختلفين. لم يكن المهدي أول من ثار على الحكم التركي المصري. إن الثورات التي قامت ضد ذلك الحكم شملت جميع أنحاء البلاد، جنوبه وشماله، شرقه وغربه. ولكن الإمام المهدي كان أبعدهم استراتيجية، وأخصبهم عقلا، وأشدهم إيمانا بما قدم عليه.

بعد هزيمة جزيرة أبا التي أصاب بها الحكومة، التجأ بقواته إلى جبال النوبة لتدعيم قوته. هناك قضى على جيشين للحكومة، الأول بقيادة مدير فشوده - راشد أيمن - في يوم السبت التاسع والعشرين من ديسمبر عام ١٨٨١، والثاني بقيادة يوسف باشا الشلالي في يوم الاثنين التاسع والعشرين من مايو عام ١٨٨٢.

القبائل التي قبلت بدعوة المهدي للثورة هزمت القوات المصرية، وحررت أبا حراز واسحف والطياره وبارا.

نزل الإمام المهدي من جبال النوبة واتجه للأبيض حيث هزمت القوات السودانية هزيمة كبيرة يوم الجمعة الثامن من سبتمبر عام ١٨٨٢، عند هجومها على مدينة محصنة بالخنادق والحصون، وقوات الثورة تحمل السيوف والحراب في وجه المدافع والبنادق.

انسحب السودانيون من الأبيض وأقاموا حصارا عليها انتهى بتسليمها يوم الجمعة الثامن عشر من يناير عام ١٨٨٣.

انهيار التبشير المسيحي في كردفان:

حدثت أول مناوشة بين الثائرين من قبائل البقارة على منطقة الدلنج في يوم ٨ أبريل عام ١٨٨٢. قتل في تلك المناوشة بعض النوبة واثني عشر جنديا من قوات حامية الدلنج التي كان يقودها الملازم محمد سليمان.

تلت تلك المناوشة مناوشة أخرى استطاعت فيها البعثة الكاثوليكية إمداد النوبة - المناوئين للثورة - بعشرين بندقيّة (جوزف أوروالدر، صفحة ٢٦، الطبعة الثانية ١٨٩٢). كمن النوبة للثوار وقتلوا منهم خمسة عشر تائرا، واستولوا على ثمانية خيول وبعض الغنائم.

عند وصول القوات الثائرة إلى فركه ذهب المك عمر مع ثائرين قلائل لتسلم منطقة الدلنج. هناك استسلمت له القوات المصرية ومعها رجال ونساء الكنيسة الكاثوليكية يوم ١٤ سبتمبر عام ١٨٨٢. استقبلهم المك عمر استقبالا كريما، وكتب خطبا تبع القافلة التي أخذت القسوسة

والرهابات إلى الإمام المهدي بالقرب من الأبيض. كل ذلك يبين الطريقة السلمية التي تم بها التسليم. لم يذكر المك عمر في ذلك الخطاب أو غيره. شيئاً عن الأسلحة التي كانت بالكنيسة وقدرها ثلاثون بندقية (أوروالدر صفحة ٢٩)، أو العشرين بندقية التي قدمتها الكنيسة للنوبة لضرب قوات الثورة أو استشهائهم الخمسة عشر ثائراً، لمعرفة بخطورة التهمة في القانون الذي كانت تحكم به البلاد، أو القانون الإسلامي أو غيره من القوانين.

اركب الأربع الرهابات على دواب وعين المك عمر ابنه ناصر لرعايتهن.

قرعت أجراس الكنيسة هناك لآخر مرة في الخامس عشر من سبتمبر عام ١٨٨٢. بعد ثلاثة أيام بدأت رحلتهم إلى الأبيض. عندما وصلوها وجدوا أن مزرعة الملبس وكنيستها قد سلمت بنفس الأسلوب.

قابلوا الإمام المهدي وكان متفهماً لموقفهم، وقابلوا الخليفة عبد الله وكان عنيفاً معهم. انتهى الأمر عند رفضهم للدخول في الإسلام. إن هذا حقهم إلا إذا قاوموا الثورة بالسلاح، وهذا ما كانوا يعرفونه تماماً (أوروالدر صفحة ٤٦).

بقي القسيسة والراهبات مع المجاهدين، بل عين المهدي مسيحياً سوريا - جورج اسطمبوليه - كان قد ادعى الإسلام لحماية مصالحه التجارية، للإشراف عليهم ومساعدتهم.

الدعوة إلى المهديّة:

إن الثورة التي قام بها الإمام المهدي لتطهير العالم العربي من الحكم

التركي، الذي كان يؤمن بفساده ومخالفته لتعاليم الإسلام وكفره، اتخذت جميع مبادئها في الدعوة والتنظيم والتكوين العسكري والحكم والتعامل مع المجاهدين معها، على أسس إسلامية صرفه. قدوة المهدي في كل ذلك، الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

ورغم أن ذلك كان صعب الفهم على من لا يملكون خلفية إسلامية ولم يدرسوا التاريخ الإسلامي، إلا أن التعامل مع تلك الثورة كان من الممكن أن يكون أكثر سهولة بقراءة كتابين فقط - واحد في التاريخ الإسلامي والثاني في الفقه الإسلامي.

تنظيم الجيش:

تكون الجيش المهدي في قدير من ثلاث رايات - أي ثلاث وحدات عسكرية - لا تختلف عن بعضها في مهماتها العسكرية، ولكنها تختلف في تكوينها الجغرافي. فالراية الزرقاء (أي السوداء) كانت تمثل أهل الغرب، والراية الحمراء تمثل أهل شمال السودان، والراية الخضراء تمثل أهل الجزيرة والنيل الأبيض.

هذه المجموعات هي قوات لأنها محاربة.. أما في حقوقها وما لها وما عليها، فهي مجموعات مدنية مجاهدة في سبيل الله. المال الذي يجمع يقسم عليهم بحسب أعدادهم (منشور الإمام المهدي رقم ٧٢ صفحة ٢٦١ منشورات المهدية، د. أبو سليم، دار الجيل ١٩٧٩) حيث يقول: (وحيث حبيبي المتحصل في بيت المال الثلاثون ألف ريال ولم تصبر الأخوان إلى أن يحصل الله لهم الكفاية فالذي قلته في التقسيم على البوارق وكل يقسم بمعرفته على جيشه فمناسب وكذلك إعطاء الخمسة عشر ألف إلى بوارق خليفة الصديق "الخليفة عبد الله التعايشي، الراية الزرقاء" كونهم نصف

الجيش وإعطاه الثمانية آلاف إلى بوارق خليفة الكرار "الخليفة محمد شريف، الراية الحمراء" لزيادة جيشه والسبعة آلاف على بوارق خليفة الفاروق "الخليفة علي ود حلو قائد الراية الخضراء".

كان الدخل المالي يأتي من الغنائم التي تقسم حسب الشرع الإسلامي، ومن التبرعات التي يقدمها أهل المال الذي يريدون التجرد من المال والجهاد في سبيل الله (منشور الإمام المهدي رقم ٧١ المصدر السابق صفحة ٢٦٠) حيث يقول: (فلازم عليكم يا أحبائي أن تصفوا جماعتكم كتصفية أبي بكر بن عامر - أمير قبيلة العمارنة - ولا تقصروا، وتكون التصفية بالكتاب والبينة ليكون أداء أمر الله فيهم وأداء حقوقهم).

طبيعي أن يكون المال الوارد إلى بيت المال قليلا في بلد نهب على مدى ستين عاما بواسطة مستعمرية. كان الزاد قليلا لكل المجاهدين بما فيهم الإمام المهدي، الذي كان يتلقى ما يتلقاه غيره من بيت المال. الذين كانت لديهم أموال طلب منهم أن يصرفوها على أنفسهم وعلى المحتاجين حولهم من المجاهدين على قلة ما لديهم (منشور ٧٠ صفحة ٢٥٨، المصدر السابق) حيث يقول: (فإذا فهمتم ذلك أحبائي، فجميع الذي عنده شيء - وإن قل - فلينفقه على نفسه وما يستطيع النفقة عليه وإن بالإثارة. وإياكم ثم إياكم من الادخار مع وجود المحاويع أهل الافتقار).

هذه التعاليم والتنظيمات العسكرية وإمداداتها قد حوتها عشرات المنشورات من قائد هذه الثورة. وعندما طالب رجل يدعى محمد الحاج أحمد مرتبا، كان رد الإمام المهدي عليه أن الله هو الذي يجزي على أعمال الناس (منشور ١٠٣ صفحة ٣٤٣ المصدر السابق).

معركة شيكان:

قامت الحكومة المصرية وبمساعدة الحكومة البريطانية بإرسال جيش إلى كردفان للقضاء على الثورة المهدية. كان الجيش بقيادة بريطاني هو مورقان هكس، يساعد هذا الجنرال حكمدار السودان علاء الدين باشا. ويضم هذا الجيش أيضا مجموعة أخرى من الأوربيين. القوة الفعلية للجيش كانت أربعة آليات، وعشر سرايا فرسان. التسليح كان بنادق الرمنقوتون وأربعة مدافع كروب، وعشرة مدافع جبالية، وستة مدافع نوردنفلت، وستة مدافع مترليوز.

شقت هذه القوة - التي كانت أكبر قوة مشت على أرض السودان - شقت طريقها إلى الدويم - على النيل الأبيض - ثم اتجهت إلى عاصمة كردفان الأبيض التي تبعد من الدويم بمائتين وخمسين ميلا.

بعد مناقشات متعددة في الطريق، وصلت إلى غابة شيكان في الخامس من نوفمبر عام ١٨٨٣ حيث قضت عليها قوات المهدي في ربع ساعة قضاء تاما بسيوفها.

مصر وبريطانيا وفكرة إخلاء السودان:

صدمة الهزيمة كانت كبيرة على مصر والجيش البريطاني الذي احتل مصر منذ الثالث عشر من سبتمبر عام ١٨٨٢. اقترحت بريطانيا على مصر إخلاء حامياتها في السودان، في الزمن الذي أرسلت قوات مصرية تركية بقيادة أحد أبطال الجيش البريطاني السابقين هو فالنتاين بيكر. كان تعداد هذا الجيش ستة آلاف رجل، وضباطه من الأتراك والمصريين والإنجليز، ومسلحا ببنادق المارتيني هنري وثلاثة مدافع كروب وثلاثة مدافع سريعة الطلقات ماركة قاتلنج.

في معركة دامت عشرين دقيقة في الرابع من فبراير عام ١٨٨٤ استطاع ألف ومائتا رجل من قوات الثورة بقيادة الأمير عبد الله حامد، من القضاء على أربعة آلاف وخمسمائة رجل من جيش فلنتاين بيكر، وأصيب القائد نفسه بطلق ناري أدى إلى وفاته بعد أيام. ألف وستمائة استطاعوا الوصول إلى السفن التي أتت بهم وهربوا إلى بلادهم.

محاولة الانتقام:

استمرت بريطانيا في استعمال كل الأساليب لحمل الحكومة المصرية على إخلاء السودان، الشيء الذي أدى إلى استقالة حكومة شريف باشا لعدم تعاونه، وعين الخديو نوبار باشا رئيسا للوزراء الذي وافق على الإخلاء.

حدث هذا في الزمن الذي كانت بريطانيا تخطط فيه لتعيين حكمدار إنجليزي على السودان، وتعد في جيش بريطاني ليدخل السودان من الشرق، ثم السير من سواكن إلى بربر عبر صحراء الشرق التي طولها ٢٤٥ ميلا واحتلال السودان.

حاولت بريطانيا تعيين صمويل بيكر أو غردون لكي يكون حكمداراً، وفي النهاية قبل الأخير. وفي أقل من شهر كان جيش انتقامها لهزيمة فلنتاين بيكر ترسوا سفنه على سواحل السودان بقيادة جنرال قراهام.

تكون هذا الجيش من قوات بريطانية في مقدمتها لواء السواري العاشر، الذي كان يقوده القائد السابق المهزوم قبل طرده من الجيش البريطاني بتهمة محاولة اغتصاب بنت تدعى كيت ديكنسون في قطار كان يسير من محطة ووكنج إلى لندن. تبعت السواري ألوية (البلاك وتش) و(بلو جاكتر) و(القارنز) و(اليورك) و(اللانكستر) وسرايا فرسان

متعددة، وطواقم مدفعية من المدفعية البريطانية ومن الأسطول الملكي، وقوات من المهندسين الملكيين، ومستشفى ميدان. بلغ عدد الجيش أربعة وعشرين ألف مقاتل، يحملون بنادق المارتيني هنري، ومدفعي قارندر، وثلاثة مدافع ميدان.

حاربت هذه القوة جيشا بقيادة الأمير مدني في (النيب) يضم ما يقل عن ثلاثة آلاف رجل، في التاسع والعشرين من فبراير عام ١٨٨٤. استشهد من القوات السودانية نصفهم وجرح النصف الآخر. أما قراهام فقد فقد أربعة آلاف رجل وجرح له ألفان. كما أنهم أطلقوا في تلك المعركة أربعة ملايين ونصف المليون طلقة من ذخيرتهم، وكل ذخائر المدافع الخمسة التي كانت لديهم.

كسب قراهام المعركة وخسر النصر، فقد اضطر إلى ترك الأرض التي احتلها لعلاج جرحاه وللحصول على إمدادات بريطانية أخرى.

في الحادي عشر من مارس ١٨٨٤ خرجت قوات قراهام من سواكن مرة أخرى متجهة إلى التاماي في مربعين. انقضت هذه القوة بسنة آلاف ثائر يقودهم أمير الأمراء عثمان دقنه عند وادي (التمانيب) في الثالث عشر من مارس عام ١٨٨٤.

اخترق الأمير عثمان دقنه المربع الإنجليزي الأول - لأول مرة في تاريخ بريطانيا العسكري - في أقل من عشر ثوان. وفي أقل من عشرين دقيقة قضى على الثمانية آلاف مقاتل بريطاني الذي كانوا بالمربع الأول، واستشهد للأمير ألفا مقاتل.

ما بعد الهزيمة المنكرة:

سحبت بريطانيا قواتها من الأراضي السودانية، ما عدا جزيرة
سواكن، بعد هذه الهزيمة النكراء التي بقيت منها كلمات شاعر الجيش
البريطاني (كبلنق):

(والآن إليك أيها الفظي وظي في دارك بالسودان

إنك فقير دهمه الظلام وتني

ولكنك رجل مقاتل

من الطراز الأول

وهنا إليك

أنت يافظي وظي

بشعر رأسك الجاف العشبي

أنت أيها الشحاذ الملتزم الأسود

لأنك حطمت المربع الإنجليزي)

غردون حاكم عموم السودان:

في السادس والعشرين من يناير ١٨٨٤ عين الخديوي توفيق الجنرال
غردون حاكماً عاماً للسودان بناء على أمر من حاكم مصر الفعلي
(بيرنق) المندوب السامي البريطاني الذي كانت تحتل بلاده مصر. فرمان
التعيين يقول: (وعندما كان هدفنا المخلص أن نفعل ما هو عدل وحق

لإزالة كل مصادر عدم الرضاء، وأن نحافظ على الإنصاف بين الأهالي، فإننا هنا نعينكم حاكما عاما للسودان بسبب معرفتكم الراسخة بهذا البلد، ونثق بأنكم سوف تحملون نوايانا الحسنة لإقامة العدل والنظام، وأنكم سوف تؤكدون السلام والتقدم لأهل السودان بالحفاظ على أمن الطرق وفتحها للتجارة) (غردون الخرطوم، بلنت ١٩١١، صفحة ١٩٧).

في نفس اليوم وفي تمام العاشرة مساء غادر هذا الجنرال محطة بولاق الدكرور متجها إلى السودان. كان في رأسه تقسيم السودان إلى دويلات. يحكم في دارفور عبد الشكور عبد الرحمن شاتون، الذي أتى معه من مصر. إن عبد الشكور هو أحد أبناء ملوك دارفور السابقين، وكان مسجوناً في مصر. اختلف هذا الأمير مع الجنرال في الطريق ورجع إلى مصر مصاحباً الثلاث والعشرين امرأة اللاتي كن معه.

الخطوة الثانية التي كانت في رأسه هي تعيين الإمام المهدي حاكماً لكرديان التي استولى عليها بسيفه. إنه كتب إليه خطاباً وأرسل إليه هدية لكي يقنعه بأن يكون حاكماً لكرديان، وتكون له علاقة حميمة به في الخرطوم. كما طلب منه في ذلك الخطاب إرسال المسيحيين الذين بكرديان له في الخرطوم.

رد عليه الإمام المهدي الذي سخر منه بخطاب خيب آماله في كسب الزمن لحين رمي خط حديدي بين سواكن وبربر وقدم قوات بريطانية لكي تقوم هي باحتلال كل السودان.

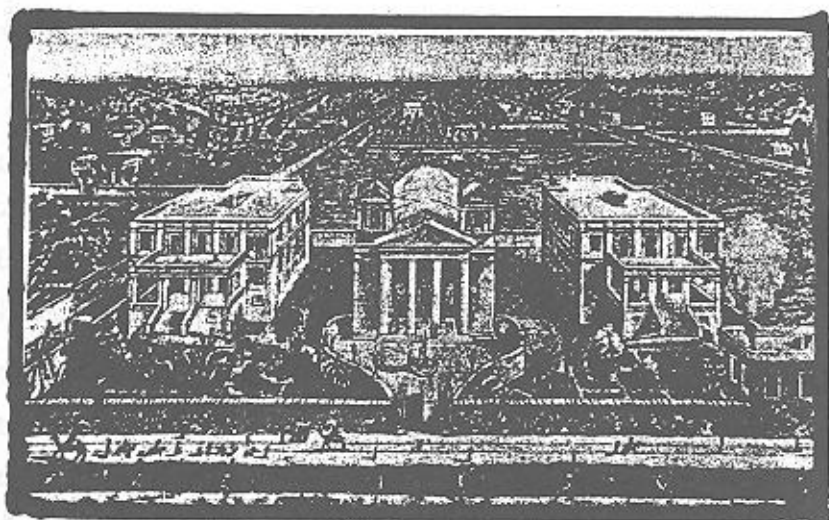
غردون والقسسة:

التقى غردون وهو بأسوان بالقسسة والراهبات الذين تركوا الخرطوم بقيادة المطران الجديد (فرانسكو سوكارو) الذي عينه البابا خلفاً لـدانيال

كمبوني في الثاني والعشرين من سبتمبر عام ١٨٨٢. حدثه القسيسة عن صعوبة الموقف بالسودان، وأنهم اتخذوا من أسوان مقرا لهم.

إن غردون كان يعرف ما نخطط له بلاده، ويعرف أن جيش فلننتاين المكون من قوات مصرية وتركية سوف يقوم باحتلال شرق السودان، وأن لواء السواربي العاشر سيكون خارج المياه الإقليمية السودانية وسيتقدم مع قوات بريطانية أخرى لاحتلال الشرق والنقدم إلى بربر. رغم كل ما عرف غردون من التخطيط البريطاني إلا أن الكلمات الواقعية التي تحدث بها المطران الكاثوليكي أصابته ببعض الكآبة، فهو يعرف أن المطران ورجال كنيسته لو رأوا تقب إبرة لنجاح بقائهم في الخرطوم لما غادروها.

تركهم غردون وتقدم إلى أبي حمد وبربر حيث أخفى فرمان تعيينه الأصيل وذكر لموظفيه هناك وزعماء المدينيتين أنه جاء لإخلاء السودان من الحاميات المصرية.



معاهد كمبوني بالقاهرة التي كانت تجمع الأفارقة السودانيين
بمصر وتدريبهم على الأعمال الكنسية وتجهزهم للسودان للتبشير فيه.

غردون في الخرطوم:

عندما وصل غردون إلى الخرطوم في الثامن من فبراير ١٨٨٤ بعد رحلة عامرة بخيبة الأمل والأخطار، استقبله الموظفون والأجانب استقبالا حارا. الشيخ حسن المجدي قرأ فرمان تعيينه، وأمور الضبطية إبراهيم لبيب ترجم خطابه الذي حمل فيه تحيات الخديو وملكة بريطانيا لجميع الشعب السوداني. وقال إنه جاء لفتح الطرق للتجارة والحج، وأنه جاء واليا من قبل الخديو والملكة البريطانية، وقد فصل السودان عن مصر، وأنه عين المهدي حاكما لكرديفان فقط، وأنه ألغى متأخرات الضرائب، وسيعفي ضرائب الثلاث السنوات القادمة. (الفداء في دفع الاقتراء، صفحة ٩، محمد عبد الرحيم).

إن كل ما ذكره غردون كان تفكير حاكم يتمتع بعقلية عصفور. الإمام المهدي رد عليه في التاسع من مارس ١٨٨٤ ساخرا منه ودعاه إلى الدخول في الإسلام.

بخصوص ترحيل المسيحيين إليه في الخرطوم رد عليه الإمام المهدي قائلا: (وأما المسلمانيون "أي الذين أسلموا" والمسيحيون الذي دعوت بطلقهم إليك، فأنا أريد لهم الصلاح والنفع عند الله وفي دار الأبد كما أريده لك ولكافة عباد الله فلا أبعدهم من جنتهم إلى محنتهم).

أيضا رد هدية الملابس الفاخرة التي أرسلها إليه غردون، وأرسل إليه الملابس الخشنة التي يلبسها هو وأنصاره من الثوار.

حصار الخرطوم:

في منتصف فبراير بدأت قوات الثورة التي جندها الإمام المهدي في

حصار الخرطوم.. أول الذين استجابوا لدعوة الثورة الشيخ العبيد ود بدر،
حد مشايخ الطريقة القادرية ويسكن أم ضبان على مشارف الخرطوم
حري، حاصر الخرطوم من الشمال الشرقي.

قوات الشيخ البصير حاصرت الخرطوم من ناحية الجزيرة. قوات
الشيخ المصطفى ود أم حقين - السروراب والشهيناب - حاصرت
الخرطوم من ناحية أمدرمان. قوات الأمير عبد الرحمن النجومي التي
قدمت من كردفان أكملت الطوق ولم يبق إلا الطريق النيلي.

المعارك التي دارت في منطقة الحصار، وتواصلت لمدة أحد عشر
شهرًا، بلغت أربع عشرة معركة. أولها معركة الحلفايا في ١٣ مارس
١٨٨٤ حيث استطاع ثوار العبيد ود بدر هزيمة قوات غردون بقيادة فحل
أغا، وأسرت من قواته مائة وخمسين. آخر هذه المعارك هي معركة
تحرير الخرطوم التي وقعت في صباح السادس والعشرين من يناير
١٨٨٥ وأنهت الحكم المصري.

استسلام دارفور:

دارت معارك متعددة بين سلاطين حاكم دارفور وثوار قبيلة
الرزقات بقيادة المادبو. أضعفت هذه الحروب قوات سلاطين وأصابتها
بالمحاق. بعد هزيمة شيكان شعر سلاطين بضعف موقفه فأعلن أنه أصبح
مسلمًا، وسمى نفسه عبد القادر، عل قواته المسلمة تثق فيه. ولكنه اضطر
سريعًا للتسليم لممثل المهدي الأمير خالد رقل والذهاب إلى المهدي
وإعلان طاعته. استمر سلاطين - حتى هروبه من السودان - مدعيًا
الإسلام ويقوم بكل طقوسه وينتهي عند نواهيه.

استسلام بحر الغزال:

دارت معارك متعددة بين قبائل الدينكا والنوير ضد قوات الحكومة المصرية بقيادة لبّتون باشا الإنجليزي. ولكنه في النهاية استسلم إلى قائد القوة التي أرسلها المهدي إلى هناك بقيادة الأمير كرم الله كركساوي. تم الاستسلام في الثامن والعشرين من أبريل عام ١٨٨٤.

خط الاستواء:

منطقة خط الاستواء كان يحكمها الدكتور أمين باشا (دكتور شنايتزر) منذ عام ١٨٧٨. انشغلت المهديّة بالعمل الحربي في وسط السودان وأبقت خط الاستواء للمستقبل. تمردت قوات أمين باشا ورفضت الإذعان لأوامر الحكومة المصرية بالإخلاء.

في مارس ١٨٨٥ حرر الأمير كرم الله كركساوي مدينة أمادي في هجوم خاطف. أرسل بعد ذلك الخليفة عبد الله ثلاث بواخر مليئة بالجنود بقيادة الأمير عمر صالح، فهزم أمين باشا في وقعتين متتاليتين، فرضخ الجنود المتمردون في جيش أمين باشا لأوامره بالانسحاب عن طريق زنجبار. هذا وتحررت كل المديرية بحلول نوفمبر ١٨٨٩.

الزحف عند الإمام المهدي:

الدعوة التي قدمها الإمام المهدي لكل القبائل وزعمائها بالسودان لم تغفل قبيلة أو زعيما لقبيلة أو زعيما دينيا مسلما. وكان كما قال في منشوره عندما عزم على الزحف على الخرطوم (منشور ٢٩ صفحة ١١٧): (إذا فهمتم ذلك فاعلموا أن السفر هو لنصرة الدين فاستعينوا عليه بالتوكل على الله والالتجاء إليه في كل الأمور فإن بيده الماء في كل محل،

وبيده الحياة في كل حال، وبيده الرزق في كل وقت، فلا تتكلموا على غيره ولا بصحبكم فيه إلا النشيط. والمريض والنساء اللاتي لا يستطعن المشي بأرجلهن والقوة على الحرب فلا يسافرن معنا. والعهد مع جميع النساء أن من لا تقدر على المشي والجهاد الشبطين لا تسافر معنا. ومن طلبت زاملة أو نحو ذلك لا إجازة لها بالسفر ولتقعد مع الأحباب الذين أمرناهم بالقعود لحراسة البلد وإقامة الدين والسلام).

وعليه فالزحف كان للقادر فقط والذي يريد الجهاد في سبيل الله. يذهبون جميعا في زحف واحد، حتى إذا أرهاقوا، أقاموا في العراء معسكرين فيه. وقد وصف (أوروادر) هذه المعسكرات في كتابه صفحة ٤٦ بقوله: (كان معسكر المهدي - من نل الجنزارة إلى جبل الحرازة - بالليل عندما يشعلون النار لطبخهم، كان المعسكر الضخم هذا يبدو بحرا من النيران تائها في الأفق البعيد).

سياسة الإمام المهدي نحو الأوروبيين المسيحيين:

ليس من الصعب استنتاج السياسة التي انتهجتها ثورة الإمام المهدي ومن بعده حكومة خلفه عبد الله التعايشي تجاه غير المسلمين ورجال الدين المسيحي الذين وجدوهم بالبلاد أو قدموا إليها بصرف النظر عن الدين الذي انتهجوه أو ادعوه. ويمكن حصر هذه السياسة في نقاط محددة هي:

أولا: عدم محاكمة أي أوروبي في أي تهمة قام بها قبل الثورة. وهذه ظهرت جليا عندما لم يورد المك عمر موضوع الأسلحة التي وجدت بكنيسة الدنج أو العشرين بنديقة التي قدمها القسيسة إلى سكان المنطقة لمحاربة الثائرين. وحتى عندما عرف ذلك فيما بعد لم يسأل أحدهم عما فعل، أيضا عدم قتل أي أوروبي لأي جرم ارتكبه مهما بلغ. ولحسن الحظ

فإن أغلب ما وقعوا فيه من أخطاء كان التجسس ولم يشمل حدا إسلاميا يمكن إثباته بشهود فقط.

ثانيا: عرض الإسلام على غير المسلمين واجب إسلامي، ولهم الحق في رفض الدعوة أو قبولها، وذلك بموجب تعاليم الإسلام، قال تعالى: (فذكر إنما أنت مذكر، لست عليهم بمسيطر) سورة الغاشية الآيات ٢٠-٢١). إن القرآن جعل عقاب الذين لا يؤمنون من اختصاص الذنوب الإلهية وهذا يبدو جليا في متابعة آيات السورة السابقة. إن بقاء دولة إسلامية لا يمنع من وجود من يتخذون غير الإسلام ديناً، وذلك بموجب جميع آيات سورة (الكافرون).

ثالثا: مساعدة المسيحيين - وخصوصا الأوربيين - للعيش في المتسحر وفيما بعد في أمدرمان، كان بإضافتهم إلى شخصيات لها وزنهما السياسي أو الاقتصادي وقدرتها على رعايتهم وحمايتهم من الجهلة وضعاف العلم الذي قد لا يفهمون موقف الإسلام منهم. وفي أمدرمان أبدلوا هؤلاء بقيادة من نفس مواطنيتهم ما أمكن. وفي كل الحالات لو ظهر أنهم يحتاجون إلى مال، فإن بيت المال يقوم بالصرف عليهم (أوروالدر صفحة ٩٧).

وفي الحقيقة فإن كل المنضمين إلى معسكر المهدي كانوا من المجاهدين الذين لا يملكون شيئا أو من الذين تبرعوا بكل ما لديهم. ورغم أن الراهبات عملن في حياكة الملابس التي درت عليهن مالا لا بأس به، ولكن العدد الكبير من رجال الكنيسة احتاج فعلا لمساعدة بيت المال.

رابعا: كتب الأب (بنومي) إلى الإمام المهدي بالابيص طابا منه السماح له ولرجالاه من القسمة والراهبات بالرجوع إلى أهلهم في أوربا.

رد عليه الإمام المهدي بخطاب لا يمانع فيه من رجوعهم ولكن عندما تسمح الظروف بذلك. والمقصود من ذلك توقف الأعمال الحربية بالبلاد، فحينها الشرق كانت به الثورة مشتتة، وكذلك الخرطوم محاصرة وأيضا بربر. ولكن على ما يبدو أن الإمام المهدي ومن بعده الخليفة عبد الله بدأ يشعرون بخطورة خروج هؤلاء الأجانب على البلاد نتيجة المحاولات المتعددة للتجسس التي جرت بين الأوربيين واخوتهم في الخرطوم، وفيما بعد بمصر.

محاولات تهريب القسمة من الأبيض إلى الخرطوم بدأت بخطاب أرسله القنصل النمساوي مع أعرابي. تلقى القسمة الخطاب إبان بقائهم مع رجل يدعى اسطمبوليه عينه المهدي لرعايتهم، ثم قاموا بالرد على الخطاب دون علم المهدي. تم القبض على الرد الذي كان يحمل معلومات رأتها الثورة مضرة بموقفها. عفا الإمام المهدي عنهم ولكن عمليات التجسس على قوات المهدي أصبحت أعلى سلعة يمكن إرسالها إلى الخرطوم، أو للقوات البريطانية بمصر.

قبل أن يذهب ركب الإمام المهدي بعيدا عن الأبيض، هرب الاب بنومي من الأبيض بمساعدة أعرابي أرسل من مصر. وفي الأبيض ساعده رجل قبضي يدعى (سيدهم) لكي يتم هروبه (أوروالدر صفحة ١٧٩).

أثار هروب بنومي:

هروب أكبر قس في البعثة الكاثوليكية كان الشيء الذي أقنع الثورة المهدية بعدم السماح لكل الأجانب، وخصوصا القسمة بمغادرة المعسكر أو البلاد فيما بعد. ليس ذلك فحسب، بل تعرضوا بعد ذلك للمراقبة والشك

فيما يقومون به من اتصال بالآخرين.

القبض على محاولة التجسس الثانية:

لبتون الإنجليزي الذي كان حاكما على مديرية بحر الغزال أتى إلى الإمام المهدي مستسلما. عفا عنه الإمام المهدي وقد قال خارسه إنه كان معجبا بالمهدي وثورته. أعلن أيضا لبتون إسلامه فأسماه المهدي (عبد الله).

غردون في الخرطوم أرسل خطابا مع رجل قبضي يدعى صالح شنوده إلى لبتون. تم القبض على القبضي وفيما بعد على لبتون وسجن (إبراهيم فوزي، السودان بين يدي غردون وكنتشتر، صفحة ١/٢٥٦).

رغم المراقبة الدقيقة فإن عمليات التجسس زادت بشكل ملحوظ بعد إنشاء استخبارات الجيش البريطاني بقيادة سير تشارلز وليسون، وكانوا يعملون من دنقلا وسواكن وكورثي.

أكبر العمليات التي قام بها هذا الجهاز في عام ١٨٨٤ هي إرسال فرنسي يدعى (أوليفر بان) للتجسس على قوات المهدي. استطاع (أوليفر بان) أن يضلل حتى سلاطين بأنه جاء لأن فرنسا تريد تقديم مساعدات مالية وعسكرية إلى المهدي بشروط (السيف والنار، صفحة ١٦٥ نسخة عالم الكتب).

إن مخطط (أوليفر بان) لم ينطل على الإمام المهدي، ورغم ذلك لم يحاكم وإنما ضم إلى موكب المهدي وقام بالإشراف عليه سلاطين إلى أن توفي بالتيفوس.

عندما بلغ المخابرات الإنجليزية نبأ موته، دفعوا المال المتفق عليه

لتجسسه، لزوجته في فرنسا وقدره خمسون جنياها لا غير (غردون الخرطوم، بلنت ١/١١، صفحة ٤٤١).

تجسس سلاطين:

عندما وصل ركب الإمام المهدي إلى ديم أبي سعد بالقرب من أمدرمان، طلب الإمام المهدي من رودلف فون سلاطين أن يكتب خطابا إلى غردون يطلب منه فيه التسليم. كتب سلاطين الخطاب ولكن لم يكتب ما طلب منه، وإنما تكلم في خطابه عن ضعف جيش المهدي وما قام به هو إيان عمله في دارفور.

اكتشف الإمام المهدي عملية التجسس هذه فقام باعتقال سلاطين ومن بعد سجنه في أمدرمان عدة أسابيع (السيف والنار، صفحة ١٧٦، نسخة عالم الكتب).

المهدي يغادر الأبيض ويترك أهل الكنيسة بها:

عندما تحرك معسكر الإمام المهدي من الأبيض إلى الخرطوم ترك أهل كنيسة الأبيض والدننج والملبس بها لسبيين: الأول أنهم ليسوا جزءا من مقاتلي الإمام المهدي، والثاني أنه من الخير إبعادهم من مناطق الحروب والإتيان بهم إلى العاصمة عند فتح الطرق وتوقف القتال بها.

أسماء أهل كنائس كردفان:

كان القسوسة والراهبات الذين وجدوا بالملبس والدننج هم الراهبات: يولاليا بسافنتو، اماليا اندرياس وماريا كابريني. والرهبان هم: لويجي بنومي الذي هرب، فويسبي أوروالدر والشماسان قابريل مارياني وقويسبي ريقونوتو. توفي من هؤلاء الشماس قابريل مارياني في الثالث

عشر من ديسمبر ١٨٨٢، والراهبان يولاليا بسافينتو في السابع والعشرين من أكتوبر ١٨٨٢، وأماليا اندرياس في السابع من ديسمبر ١٨٨٢. أضف إلى هؤلاء الذين كانوا تحت رعاية جورج اسطمبولية من رجال كنيسة الأبيض، وهم: القسيسة لوسي وهو الذي كان يقوم بأعمال المطران كمبوني بعد موته، وباولو رزقنولي، وطالب الكهنوت اسيدرو لوكاتلي. أما الراهبات فكن: تريزا قريقوليني رئيسة الراهبات بالمنطقة، وكاترينا شانكريني وبتينا فنتوريني، وكونستا كورسي، والراهبة السودانية التي جندت في جبال النوبة وأسُميت فورثوناتا كواسكا.

حياة المبشرين:

ليس من الصعب تصور الموقف الذي حدث بالفعل للمبشرين، فمن الناحية النفسية فإن العمل الذي من أجله قد حضروا إلى هذه المجاهل البعيدة قد انتفى، ومن الناحية الاقتصادية فإن إمداداتهم المالية وغيرها التي كانت تأتيهم من أوربا قد توقفت. هم الآن يعيشون كما يعيش أهل السودان وفي حالة حرب. من الناحية الصحية فإن المبشرين الذين فقدوا نصفهم تقريبا بسبب الأمراض المستوطنة مثل الملاريا والذنتاريا وفي بعض الأحيان التيفويد، كان من الطبيعي أن يزيد عدد موتاهم بسبب المجاعة التي سببها حصار الأبيض وبسبب تجمع أعداد كبيرة من المواطنين في مكان واحد. ولكن لحسن الحظ فإن الصورة لم تتخذ هذا الشكل الذي كان متوقعا لها، بل قلت نسبة الوفيات بينهم إذا قيسَت بفترة ما قبل الثورة.

إستراتيجية تحرير الخرطوم:

دارت بين الثوار وقوات غردون أربع عشرة معركة، كان يحاول

فيها غردون فك الحصار عن العاصمة. كل المحاولات التي قام بها الإمام المهدي لإقناعه بالتسليم دون إراقة دماء لم تفلح. حتى خطاب المهدي الذي كتبه إلى غردون في السابع من يناير عام ١٨٨٥ عندما سمع أن غردون يبث في دعاية يقول فيها إن المهدي يريد مالا في مقابل تركه يعود إلى بلاده، لم ينجح في إقناعه بالتسليم (إبراهيم فوزي، صفحة ١/٣٩٥).

في هذا الخطاب بتاريخ ٧ يناير ١٨٨٥ كتب الإمام المهدي إلى غردون يقول: (إنك قلت إن الإنجليز يريدون أن يفدوك وحدك بعشرين ألف جنيه، ونحن نعلم أن الناس يقولون من البطل كلاما كثيرا ليس فينا. وذلك لصدود من أراد الله شقاوته، ولا يعلم نفيه إلا من اجتمع بنا. وأنت إذا قبلت نصحنأ فيها ونعمت وإلا إن أردت أن تجتمع على الإنجليز فبدون خمسة فضة نرسلك إليهم والسلام) (شقيز صفحة ٨٥٧).

لم يقبل غردون العرض، وكانت حساباته مبنية على أن الإنجليز الذين دخلوا السودان فعلا سيأتون لنجدته. ورغم أن جيش ولسلي كان يتكون من أربعة عشر ألف جندي بريطاني، وسبعة آلاف جندي مصري، إلا أن غردون لم يفكر في أن أعداءه يملكون أيضا إستراتيجية كانت حتى تلك اللحظة أفضل ترتيبا وأدق تنفيذا من إستراتيجيته التي برهنت على فشلها - حتى تلك اللحظة - عشرات المرات. إن الإمام المهدي كان ملما بكل خطوة خطاها الجيش القادم بقيادة الفريق ولسلي. ففي اليوم الذي كتب فيه خطابه إلى غردون في السابع من يناير ١٨٨٥ كانت قوات حملة النيل قد قسمت قواتها إلى ثلاث مجموعات: واحدة للإمداد على طول النيل من الشلال إلى كورتي، ومجموعة شكلت طابور الصحراء الطائر غادرت كورتي في ذلك اليوم آخر دفعة منها بقيادة (ستانلي كلارك) لتلحق بمن

سبقها إلى أبار جقدول، المجموعة الثالثة بدأت تتكامل قواتها في الحمداب بعد أن غادرت كورتى أول دفعة منها في الثامن والعشرين من ديسمبر ١٨٨٤.

كان الإمام المهدي عالما بكل أفعال الجيش الغازي، وجميع تحركاته تصله أخبارها مرتين في اليوم العادي. أما استراتيجية المهدي فإن غردون كان يتصور خطأ أنه سيستمر في الحصار إلى حضور الإنجليز إلى الخرطوم. لذلك كانت مشكلته هي توفير غذاء لحاميته حتى حضور الإنجليز.

إن استراتيجية الإمام المهدي - التي فشل غردون في الوصول إليها حتى بالمنطق - كانت في أن تستمر قواته في حصار الخرطوم لأخذها بالتسليم لكي لا تراق دماء، إلا إذا اقترب جيش ولسلي. ففي هذه الحالة يجب عدم مواجهة قوتين في وقت واحد. وهذا يستوجب تحرير الخرطوم عنوة إذا اقترب جيش ولسلي منها.

لذلك ما كادت أول باخرتين تحملان عشرين جنديا إنجليزيا ومائتين وأربعين من القوات التي أرسلها غردون لإحضار الإنجليز، تغادر (أبا خروق بالقرب من المئمة) حتى أصدر الإمام المهدي أوامره لقواته بالهجوم على الخرطوم لتحريرها.

إن القوات التي كانت قادمة على الباخرتين (بردين وتلحوين) بالقطع لم تشكل خطرا حقيقيا مباشرا على قوات المهدي. وفي الحقيقة فإنهما لم تحضرا لقتال المهدي، وإنما لإيصال شحنة من (الكورندييف) الملوث (بالمونيلا) التيفويد لكي يحارب بها غردون القوات المحاصرة حربا بيولوجية. العشرون جنديا من قوات لواء سكس بقيادة كابتن ترافورد كان

الغرض من إحضارهم القيام باستعراض عسكري في شوارع الخرطوم، لإقناع السكان بأن الإنجليز قادمون. بقية الإنجليز الذين كانوا في الباخرتين هم: القائد (سير تشارلز ولسون) وكابتن (كاسكوان) ولفنتانت (استيوارت وورثلي) من الاستخبارات وكانا متخصصين في الحرب البيولوجية. كان لهم ثالث يدعى ميجور (دكسون) ولكنه ضرب في ساقه في معركة أبي طليح.

لم يهتم المهدي بمن في الباخرتين أو ماذا تحملان، ولكنه نفذ استراتيجيته بدقة متناهية.

تحرير الخرطوم:

في تمام الثالثة من صباح الاثنين السادس والعشرين من يناير ١٨٨٥ بدأ الأمير عبد الرحمن النجومي بهجوم لم يكمله على بوابة المسلمية التي تقع في منتصف استحكامات غردون، وأمر قوات محوره الثالث الذي يقوده الأمير محمد ودنوباوي - وقد كان بغاية الخرطوم - عند نهاية استحكامات غردون الغربية، أن تقوم بهجوم تدخل به إلى داخل المدينة وتأخذ قوات غردون من الخلف. تم ذلك الهجوم بدقة.

تبعه هجوم آخر في تمام الثالثة والخامسة والعشرين قام به محوره الثاني بقيادة الأمير أبي قرجه على شرق الخرطوم. كل شيء تم بسرعة فائقة.

اجتياح الكنيسة:

المحور الذي قاده الأمير محمد ودنوباوي انشق إلى ثلاثة محاور بعد دخوله الخرطوم. محور لمهاجمة مدفعي منطقة المقرن، ومحور ثان

لمهاجمة قوات غردون على الحصون وكان أكبرها، ومخبر ثالث للاستيلاء على الكنيسة، لا لأنها كنيسة، فعندها لم تكن كذلك وإنما كان غردون قد أجراها بعد أن أخلاها القسيسة واستعملها مخزنا للسلاح، وأخيرا مهاجمة القصر. هناك كنيسة أخرى كانت بالخرطوم هي كنيسة الأرثوذكس الأقباط وكانت خاوية أيضا من قسستها ولكن لم تستعمل لشيء آخر. الكنيسة الأخيرة لم تهاجم لأنها ليست موقعا حربيا.

الاستيلاء على الكنيسة الكاثوليكية:

في تمام الثالثة والأربعين دقيقة من صباح الاثنين وصل الشق الذي انفصل من محور الأمير محمد ودنوباوي واتجه شرقا، وصل إلى باب الكنيسة الكاثوليكية. كانت خطة الهجوم مبنية على نسلم مخازن السلاح قبل أن يفكر الجنود في تفجير غرف الذخيرة. لذلك تم الاقتحام من جانبيين، الجانب الجنوبي والغربي. لم تطلق النار وإنما تسلق الثوار الحائطين، فوجدوا أن الجنود عندما سمعوا التهليل هربوا إلى الحديقة، ما عدا واحد فقتلوه.

قوات الهجوم التي تسلفت الحيطان الجنوبية كان عليها تأمين المخازن، والقوات التي دخلت من الناحية الغربية كانت مهامها تنظيف الحديقة وحماية الجانب الشمالي والشرقي حتى لا يدخل جنود غردون من هناك. هذا وقد أبعد حامل أي بندقية من الانضمام إلى مهاجمي الكنيسة حتى لا يكون ذلك سببا في تفجيرها. جنود غردون الذين كانوا يقومون بالحراسة لقتلهم لم يحاولوا استعمال بنادقهم أو حتى الوقوف للدفاع عن أنفسهم أو المخازن التي كانوا يحرسونها. هربوا إلى حديقة الكنيسة تاركين بنادقهم في الأمكنة التي كانوا يحرسونها. تم القضاء عليهم سريعا بالسيف.

الشماس (دومينكو بولوناري) الذي تركه القسيسة للإشراف على الحديقة وإدارة طلبية الري البخارية التي كانت الأولى التي دخلت السودان وكانوا يسقون بها حديقة الكنيسة، سمع ضوضاء الهجوم فذهب إلى باب الحديقة وفتحه، وما كاد يرى حراب الأنصار الطويلة حتى قفله وهرب للاختباء في غرفة عشب كانت بالحديقة. آخرون حاولوا القيام بنفس العمل ولكنهم غيروا رأيهم وخرجوا للبحث عن مكان اختباء آخر فقتلوا. دخل الأنصار إلى غرفة العشب ولكنهم لم يدققوا في البحث وتركوها دون أن يشعلوا بها نارا تنفيذا للتعليمات التي كانت لديهم.

عملية الاستيلاء على الكنيسة لم تأخذ أكثر من عشر دقائق بقوات لم تزد عن عشرين مقاتلا. فالذي حدث أن قائد القوات التي كان عليها الاستيلاء على الكنيسة والقصر، وجد الحراسة ضعيفة في الكنيسة ولم يتصور أن قوات حراستها قد هربت إلى منازلها، واعتقد أن القوات قد تركزت في القصر. لذلك لم يترك بالكنيسة أكثر من عشرين مقاتلا، وتقدم بكامل قوته تقريبا إلى القصر.

الاستيلاء على القصر:

بعد الثالثة والخمسين بقليل كانت قوات الأمير محمد ودنوباوي تتسلق حيطان القصر. جنرال غردون الذي ظل الليل يحاول مراقبة ما يقوم به الأنصار، ما كاد يسمع تهليلهم في غرب الخرطوم وداخل حصونه حتى اقتنع أن مقاومته قد وصلت إلى نهايتها. شعر أنه فقد عمل عام كامل منذ أن غادر محطة بولاق الدكرور في مصر في السادس والعشرين من يناير عام ١٨٨٤.

دخل غردون إلى غرفة ملابسه حيث لبس كسوة الشرف الصغرى

التي هي ملابسه اليومية، وتقلد سيفه، ولبس طربوشا وضع تحته كوفية حريرية. عندما خرج غردون أمر حراسه بعدم المقاومة. عندما وصل إلى المنطقة التي يريد منها النزول عبر الدرج صاح سائلا: أين محمد أحمد؟ ولكن مرسال - حامل راية الأمير ميرغني سوار الذهب - قدر الموقف خطأ وتصور أن غردون يريد إطلاق النار عليهم، فتلقاه بطلق ناري أسقطه على الدرج. غضب المهدي لمقتل غردون، فقد قتل بعد الأوامر المشددة التي أصدرها بعدم قتله.

ضحايا تحرير الخرطوم:

إن عددا كبيرا من الذين أيدوا غردون في حربه ضد الانتصار قد قتل. وهذا ما خشيه الإمام المهدي تماما، لذلك لم يسرع بالهجوم على الخرطوم إلا عندما أصبح في موقف لم يكن معه الحصار وحده كافيا، وذلك باقتراب القوات الإنجليزية.

الذين استشهدوا من قوات الثورة السودانية كانوا قليلين. فأكبر المراجع تحديدا لهذا العدد كان سلاطين إذ قدرهم بما بين ثمانين ومائة (السيف والنار صفحة ١٩٧، نسخة عالم الكتب) وأصغر عدد هو الذي ذكره الكردفاني وهو عشرة (سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي صفحة ٣٥١). والذي لا شك فيه أن جميع رجال الكنيسة لم يكن فيهم غير بولوناري في مسرح العمليات لكي يصاب أو يقتل. وهذا انطبق أيضا على الكنيسة القبطية التي كانت بالخرطوم، ولم يكن بها أحد.

الأوربيون الذين قتلوا في الهجوم على الخرطوم كان أكثرهم من الإغريق. قتل من هؤلاء سبعة بعد أن كاد جورج كلمنطينو أن ينقذهم نسبة إلى صلته القوية بالثوار.

القناصل بالخرطوم قد قتلوا، اليوناني نيكولا ليونتيديس، والنمساوي مارتن هانسل، والأمريكي أسر كلهم قد قتلوا. والجدير بالذكر أن قنصل بريطانيا بور، وقنصل فرنسا هيرين غادرا الخرطوم في الباخرة عباس في العاشر من سبتمبر عام ١٨٨٤، ولكنهما قتلًا في قرية الهبه - بأرض المناصير - انتقاما لقتل نائب حاكم دنقلا - جودت بك - لزعيم المناصير النعمان ود قمر في الدبه في التاسع والعشرين من يونيو عام ١٨٨٤.

ماذا حدث بالكنيسة الكاثوليكية:

توقف القتال في تمام التاسعة صباحا. الشماس (دومينكو بولوناري) ظل لساعات بعد توقف إطلاق النار مختبئا في العشب. عند حلول المساء شعر بالجوع والإرهاق فخرج من مخبئه واتجه إلى قطية (غرفة) امرأة تدعى حليلة تقع أمام حائط الكنيسة ولها شباك يشرف على حديقة الكنيسة. دخل إلى قطيتها من الشباك واستلقى على عنقريب (سرير) لها، وطلب منها ماء وخبزا، فأبلغته بما حدث في الخرطوم، وخوفها من عواقب إخفاء الشماس جعلها تخبر الحراس بالخارج.

حضرُوا إليه وفي اليوم الثاني أخذوه إلى أمين بيت المال الذي أرجعه إلى حراسة كنيسة التي بقيت مبانيها كما هي لم يمسه ضرر (أوروالدر صفحة ١٥٠).

قبل وصول الإمام المهدي لزيارة المدينة في الثلاثين من يناير، أمر الخليفة شريف بإنزال جرس الكنيسة الكاثوليكية الحديدي الذي في شكل نصف كرة فوقها مطرقة تجذب بحبل. أيضا أمر بإزالة الصليبان التي كانت بالكنيسة وبقبري كمبوني ورايلو، وبالكنيسة القبطية أيضا، وبمقابر المسيحيين غرب كلية الطب الحالية، وذلك لأسباب دينية إسلامية.

الكنيسة الكاثوليكية ظلت كما كانت مخزنا للبارود، لم ينفجر بارود بتلك المخازن على طول فترة الحكم المهدي وإلى أن استولى عليها في الرابع من سبتمبر ١٨٩٨ مدير الخرطوم الإنجليزي وحولها مقرا لإدارته. قبرا المطرانين رايلو وكمبوني ظلا هناك إلى أن حضر أوروالدر والأب بان هولزر في سبتمبر عام ١٨٩٩ وطلبا إخلاء الكنيسة. عندما فشلوا في إقناع السلطة البريطانية بتسليمها الكنيسة طلبا أخذ عظام المطرانين. سمح لهما المدير بأخذ العظام فنبشا القبرين وتسلما العظام فعلا.

ماذا حدث للقسيسة والراهبات:

بعد تحرير الخرطوم قرر المهدي أن عاصمته هي أمدرمان. أخليت الخرطوم وأرسل الخليفة عبد الله أمرا إلى الأبيض بإحضار الراهبات والرهبان إلى العاصمة الجديدة راكبين على دواب وحاملين ما يكفيهم من طعام. اعتذر أوروالدر بأنه لا يستطيع السفر لإصابته بالدستاريا، فبقي هناك شهرا إلى أن شفي وبقي معه جميع القسيسة.

الراهبات اللاتي وصلن إلى أمدرمان كن: تريزا قريقوليني، كونستا كورسي، كاترينا شنكريني، اليزبتا فينتوريني، ماريا كابريني والراهبة السودانية فورثوناتا كواسك.

الرهبان عندما حضروا إلى العاصمة في أبريل عام ١٨٨٦ كانوا ينقصون واحدا هو الأب بنومي الذي هرب من الأبيض إلى مصر. هذا ولم يجدوا الإمام المهدي، فقد مات منذ عشرة أشهر.

عمليات الهروب:

اقتنع الإمام المهدي ومن بعده الخليفة عبد الله أن خروج الأوربيين

عامة من السودان ستكون عواقبه وخيمة، نسبة للمعلومات التجسسية التي يمكن أن يدلوا بها إلى أعدائهم الإنجليز والمصريين بمصر. كما أن المسيحيين من جانبهم ساعدوا كثيرا في إقناع المهدي ومن بعده الخليفة عبد الله بعدم رغبتهم في العودة لبلادهم بعدة طرق:

أولا: عمليات تبني الإسلام استمرت، ليس اقتناعا، وإنما وجدوها أسلوبا أسهل للتعايش مع ظروف من الصعب عليهم فهمها. وقد تزوجت الراهبات زواجا سوريا ما عدا واحدة كان زواجها حقيقيا. وهذا يعطي الموضوع بعدا آخر، إذ إنه ليس من السهل أو المقبول من الناحية الإسلامية تسليم مسلمين إلى سلطات أو بلاد مسيحية أو هي في نظر المهديّة محكومة بسلطة كافرة. الراهبة الوحيدة التي تزوجت زواجا غير صوري وأنجبت أطفالا من زوجها هي الراهبة تيريزا قريقوليني.

ثانيا: رجع المسيحيون المتمسحون بالإسلام شكلا يتملقون المهدي والخليفة في أنهم لا يريدون الخروج من جنتهم إلى محنتهم (سلاطين، صفحة ٢١٠ نسخة عالم الكتب)، بالطبع فإن خلطهم للعقلية المصرية التي كانت تحكم السودان قولا بعقلية رجال المهديّة كانت سببا في لجوئهم لهذه السياسة.

أمير المنافقين سلاطين:

إن أكبر منافق عرفته المهديّة كان سلاطين، فقد تخصص في النفاق بشكل لم يستطع فرد أن يجاريه فيه. رئيس أركان حرب غردون اللواء إبراهيم فوزي في كتابه (السودان بين يدي غردون وكنتشنر) وصف سلاطين بالكلمات التالية: (كان ينافق كل شخص على هواه، ويلبس الملابس الرثة) (السودان بين يدي غردون وكنتشنر، صفحة ٣١٤/١).

بدأ سلاطين النفاق قبل تسليمه للمهدية، فقد ادعى الإسلام لكي ينافق جنوده (سلاطين، صفحة ١٠٩، نسخة عالم الكتب) حيث قال لجنوده: "وقد سمعت أن البعض يعدني أجنبيا غير مؤمن بالإسلام، ولكني أقول لكم إنني مؤمن كما أنتم مؤمنون، أشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله".

عندما قابل سلاطين الخليفة في الرهد قال له: "شكرا لله الذي أبقاني حتى أرى هذا اليوم، لقد ذهب عني تعبي عندما رأيت طلعتك" (صفحة ١٤٩ من كتابه).

عندما قدمه الخليفة إلى المهدي رد على المهدي قائلا: "أجل يا مولاي، لقد سررت وثلت السعادة بقربي منك" ثم بايعه على التوحيد بالله وعدم ارتكاب المعاصي وعدم المعصية والجهاد في سبيل الله (صفحة ١٥٢ من كتابه نفسه).

بالقرب من الخرطوم طلب منه الإمام المهدي أن يكتب خطابا إلى غردون يطالبه فيه بالاستسلام. كتب سلاطين خطابا بالألمانية إلى غردون يصف فيه ضعف الجيش المهدي، ويسوق المعاذير لأعماله عندما كان حاكما بالغرب.

لسوء حظه فإن هذا الخطاب الذي أرسل في الخامس عشر من أكتوبر ١٨٨٤ قرأه - غردون الذي يفقد بعد النظر - وأراد أن يرفع روح جنوده المعنوية فأصدر منشورا إلى جنوده وأهل الخرطوم ينقل فيه حديث سلاطين عن ضعف قوات المهدي. وبالطبع قام رجال استخبارات المهدية بالخرطوم بإرسال المنشور إلى الأمير أحمد ود سليمان - أمين بيت المال - الذي بدوره قدمه إلى الإمام المهدي.

أمر المهدي بتقييد سلاطين، وفيما بعد أرسل إلى سجن أمدرمان،

وحتى وهو بالسجن استطاع بنفاقه أن يرتب خطبة عصماء ألقاها عند حضور الخليفة للسجن يطلب فيها السماح والغفران على ما ارتكب من ذنب. وقد أدت الخطبة إلى إطلاق سراحه وسراح لبيتون حاكم بحر الغزال السابق (كتاب سلاطين صفحة ٢٠٦).

عندما أخذهما الخليفة إلى منزل المهدي قال الأخير لهما: إنه تسلم خطابات من قائد الجيش بمصر يقول فيها إنه قد أسر أقارب المهدي الذين كانوا بدنفلا وأنه يعرض أن يقايض بهم على ما عند المهدي من الأسرى الذين كانوا مسيحيين. وقال: "لقد قررنا أن نجيب بانكم جميعا مسلمون وأنكم متحدون معنا ولا ترغبون في أن نقايض عليكم برجال ولو من قرابة المهدي"، وعندما سألهما: "ولكن لعلكم تحبون العودة إلى النصارى؟" فرد هو ولبتون بـ: "إننا لا نرغب في تركه وأن مسرات الدنيا كلها لا تغرينا بمفارقتة وأن بقاءنا معه يفيدنا لأنه يرشدنا إلى طريق الخلاص" (سلاطين صفحة ٢٠٨).

هذا في حين أن الذين كانوا يقولون إننا نريد الرجوع يسمح لهم بذلك فوراً. فعندما قدم المصري الشيخ خليل في صحبة عبادي للخليفة ليبادل أسرى توشكي ببقايا ممتلكات غردون والصلح مع مصر، سأله الخليفة، هل يريد الرجوع أم البقاء؟ رد الشيخ خليل "إن من رأى النور لا يذهب إلى الظلمة". عندما سأل الخليفة العبادي نفس السؤال رد عليه الأخير إنه رسول ويريد العودة فسمح له فوراً (عشر سنوات سجننا في معسكر المهدي، الأب أروالد. صفحة ٣٦٢).

من هم الذين كانوا من أصول غير مسلمة في نهاية المهديّة:

من الألمان تبقى في نهاية المهديّة (نيوفيلد) وكان مسجوناً لجريمته

في الإتيان بأسلحة للكبائش، قبضته قوات النجومي بالقرب من دنقلا. نيو فيلد تزوج حبشية في السودان ولدت له ولدا وبنتا. بعد أن أخرجه الإنجليز من السجن المهدي ورجع إلى بلاده اشتغل جاسوسا في الحرب العالمية الأولى لبلاده ضد إنجلترا.

الإيطاليون:

١- جوزيف كلنق: سمي بعد إسلامه بيوسف، تزوج قبطية تدعى ماريا أنجبت له ولدا، هذا وقد كانت تسكن معه أخته.

٢- بيترو أفاتي: وقد أسمى بعد إسلامه بيوسف. حضر بيترو إلى السودان أولا من إيطاليا للعمل في كنيسة إفريقية الوسطى - مجلس الوزراء الاتحادي الحالي - وقد استطاع صنع طوب جيد بين عامي ١٨٥٤ و ١٨٧٢ للكنيسة. خلال المهديّة بنى منزل الخليفة عبد الله التعايشي. هذا ولم يترك السودان بعد حضور الإنجليز، وأشرفت عليه في كبره الكنيسة الكاثوليكية.

٣- منهم أيضا جوزيف كوستي (كوزي) الذي تغير اسمه بعد إسلامه إلى محمد يوسف. كان في طريقه إلى مصر عندما التقى به غردون في بربر عام ١٨٨٤. عينه غردون مندوبا له ببربر، وسلمه الشفرة التي يرسل بها أخباره إلى مصر أثناء الحصار. أيد الإمام المهدي وتزوج سودانية توفيت خلال المهديّة ولكن بقيت بنته منها.

٤- سلم أيضا في كردفان (ديبو) بعد إسلامه أصبح اسمه (يوسف) وقد كان متزوجا من مسيحية سورية تدعى ماريا بنت جورج الخال، هذا ولم تنجب له أطفالا.

- ١- استسلم في كردفان كوستي كار الامبو ثم تزوج سودانية ولدت له ولدين وبنيتين، اسمه خلال المهدية كان (رجب).
- ٢- في الخرطوم استسلم جوزيف سولومون وأسمي يوسف ولم يتزوج.

الإغريق:

كان الإغريق أكبر جالية أجنبية بالسودان، وكانوا في فجاج مختلفة منه، الذين سلموا بكردفان هم:

- ١- دمري كوكورامبو وأسمي آدم. تزوج آدم كبيرة راهبات كنيسة الأبيض تريزا قريقوليني، وهي الراهبة الوحيدة التي تزوجت زواجا غير صوري إبان المهدية. ورغم أنها أنجبت له خلال المهدية ولدا واحدا إلا أنها حملت على أن تعيد مراسيم زواجها إلى مراسيم مسيحية، فتزوجت زوجها مرة أخرى في الخارج. ولدها الأول لكي يشارك في إرثها وأرث والده اضطرها لترفع قضية إثبات نسب في إيطاليا مستقبلا.
- ٢- بانايوتي ترمبو، وأسمي بعد إسلامه أحمد، تزوج فكتوريا جورج الحكيم ونم ينجب منها أطفالا.
- ٣- باندالي ديمترولا، أسمي عبد الله وكان متزوجا من مصرية من القاهرة وله منها ولد.
- ٤- جورج كالامانتينا، اتخذ اسم جابر بعد إسلامه، وكان قد تزوج

سودانية تدعى زايده، ولدت له ولدين وبنتا. كان جابر مقربا من الإمام المهدي، وكان المهدي قد أرسله إلى غردون فذهب وعاد إليه.

-جوزيف سافا أصبح اسمه بعد إسلامه يوسف. كان يوسف متزوجا من قبطية ولدت له ولدا واحدا.

٦- أنتوني سيريكأ أصبح اسمه بعد إسلامه عبد اللطيف. كان عبد اللطيف متزوجا من قبطية ولدت له ولدا ولكنها توفيت بعد معركة كرري بستة أيام، أي في الثامن من سبتمبر ١٨٩٨.

٧- جورج كوكو، أسمى إبراهيم، وكان متزوجا من قبطية. أولاده منها ولدان وبنتان.

٨- دمتری جورجيو أسمى بعد إسلامه عبد الله. زوجته كانت قبطية وله منها بنت.

٩- هاج يني اسمه بعد إسلامه مصطفى. زوجته كانت سودانية وأنجبت له ولدين وبنتا.

الأغريق الذين سلموا في الخرطوم:

١- منواي ديكاو يني أسمى بعد إسلامه آدم. كان متزوجا من إغريقية تدعى آيادا ولم ينجبا أطفالا.

٢- نيكولا بابادام، أسمى أحمد. تزوج قبطية ولدت له ولدين وبنتا.

٣- يني كيركاتي، أسمى محمد صالح، وكان متزوجا من بنت جورج بك الحكيم الذي قتل في شيكان وكانت تسمى روزا ولدت له ولدا

واحدا.

٤-بولوكراتي داريللا، أسمي بعد إسلامه إبراهيم. كان متزوجا من أغريقية تدعى ماريا ولم ينجبا أطفالا.

٥-جورج أنستيني، أسمي بعد إسلامه عبد الله ولم يتزوج.

٦-بوتي دم تري يني، لم أتعرف على اسمه بعد إسلامه؛ ولكنه كان يعيش مع أمه القبطية ولم يتزوج.

٧-نيكولا بيكريلي، أسمي بعد إسلامه عبد الله وتزوج قبطية ولدت له ولدا واحدا.

إغريق القصارف ودوكة:

١-نيكولا منسي، أسمي بعد إسلامه محمد نور فزوج قبطية ولدت له ثلاثة أولاد وبنتين.

٢-الإسكندر كي يو لوبس، أسمي بعد إسلامه عبد الله تزوج أثيوبية أنجبت له ولدين وبنتين.

٣-نيكولا بيكريلي، أسمي بعد إسلامه عبد الله، تزوج قبطية ولدت له ولدا واحدا.

إغريق بربر:

نيكولا ياكوبولا، أسمي بعد إسلامه عبد الله، تزوج في بربر بنت جورج اسطامبولي وولدت له ولدا واحدا.

إغريق المسلمية:

نيكولا يارندوري، أسمى بعد إسلامه إبراهيم، تزوج حبشية وأنجبت له ثلاث بنات وولدا.

إغريق تركوا في حلفا:

١- انطوان بابادوبلو، أسمى بعد إسلامه صالح ولم يتزوج.

٢- بانيوتي الإسكندر، أسمى اسكندر وتزوج قبطية ولم ينجب.

إغريق من الباخرة عباس:

عندما جنحت الباخرة عباس التي كانت تقل استيوارت والفتصل الفرنسي والإنجليزي في أرض المناصير، حيث قضى المناصير على أكثر من كان على السفينة انتقاما لمقتل شيخ المناصير النعمان ود قمر بقي من الإغريق اثنان هما:

١- دمترى يارقوبولو، وأسمى بعد إسلامه عبد الله. انتهت المهدية دون أن تكون عنده زوجة أو أطفال.

٢- نيكولا كنارا، لم أتعرف على اسمه العربي بعد إسلامه ولكنه تزوج قبطية أنجبت له بنتين.

إغريق لم تعرف أماكن استسلامهم:

كوستا إيفانقلو، أسمى بعد إسلامه موسى، لم أتعرف على أصول زوجته ولكنه كان متزوجا وله ولد.

١- من الأرمن الذين استسلموا في الخرطوم أرمني يدعى (أرتن) أبقى على اسمه ولم يتزوج.

٢- من القضايف جاء أرمني آخر يدعى جوزيف أرتن، كانت معه أمه القبطية وأخوه ساركيا، هذا ولم يتزوج جوزيف.

سوريون مسيحيون من كردفان:

١- يوسف قبيلي، أسمى بعد إسلامه باسمه يوسف، جاء من جبل لبنان وتزوج ماريان نعيم بلدي ولم ينجب.

٢- شكري تقييا من حلب في سوريا احتفظ باسمه بعد إسلامه وتزوج سودانية أنجبت بنتين وولدا.

٣- جورج اسطبولي اسمه بعد إسلامه محمد سعيد، تزوج قبطية ولدت له ولدين وبنتا.

٤- نعيم موصلي، أسمى بعد إسلامه عبد الحليم، تزوج قبطية ولدت له ولدا وثلاث بنات.

٥- أنطون تاوا، اسمه بعد إسلامه موسى ولم يتزوج.

سوريون مسيحيون من الخرطوم:

١- عبد الله تيرازي، عبد الله هو الاسم الذي اتخذه بعد إسلامه واختفى اسمه الأصلي الأول ولم يتزوج.

٢- قوبي أيوب، أصبح اسمه بعد إسلامه أيوب وكصاحبه عبد الله

تيرازي لم يتزوج.

٣-نعوم عيجي، استمر باسمه نعوم بعد إسلامه، وكان قد استسلم مع من استسلم في الباخرة عباس والزوارق التي صاحبتهما. كانت الباخرة تقل نائب غردون استيوارت والقنصل الفرنسي هيرين والقنصل الإنجليزي بور، وقضى على أكثرهم المناصير في قرية الهبة في سبتمبر ١٨٨٤، وكان نعوم أحد الناجين. كان نعوم متزوجا من حبشية ولدت له ولدين. ابنه يوسف تزوج وأنجب حفيدا لنعوم.

٤-جورج غالي، أسمى خضر بعد إسلامه وهو من حلب، هذا ولم يتزوج.

٥-عبد الله عيجي، هو أخ نعوم عيجي، قد نسي اسمه الأول قبل إسلامه. تزوج وأنجب ثلاثة أولاد وثلاث بنات.

٦-حبيب فرانسس، استمر بعد إسلامه باسم حبيب ولم يتزوج.

يهود استسلموا في الخرطوم:

١-موسى بسينوني، استمر باسم موسى بعد إسلامه وكان متزوجا من يهودية، تزوج بعدها قبطية. وعليه هو من القلائل الذين تزوجوا أكثر من زوجة واحدة. كانت لزوجته القبطية بنت عاشت معهم، أما هو فلم ينجب حتى معركة كرري.

٢-إسحق بسينوني، استمر باسم إسحق بعد إسلامه، وكان متزوجا من يهودية أنجبت له ولدين وبنتا.

٣- إبراهيم إسرائيل، استمر بعد إسلامه باسم إبراهيم، تزوج سودانية أنجبت له بنتين وولدا.

٤- خادر، لم يعرف اسمه الأول، ولكن اسمه بعد إسلامه أصبح عبد النبي، تزوج سودانية أنجبت ولدا وبنتا.

٥- نسيم هيفاس، استمر بعد إسلامه باسم نسيم، تزوج سودانية ولدت له بنتا وولدا.

٦- داود منديل، استمر باسم داود بعد إسلامه وتزوج مصرية أنجبت له ولدين وبنتا.

٧- جوزيف سليمان، أسمى بعد إسلامه يوسف ولم يتزوج.

يهود من بربر:

مراد بسيسي، استمر بعد إسلامه باسم مراد، وكان متزوجا من يهودية وله منها طفلة.

يهود من كسلا:

المالح ظبت، أسمى بعد إسلامه محمد سعيد وكان متزوجا من يهودية ولم ينجب خلفا.

عائلات مسيحية:

إن الذين ماتوا إبان العهد التركي كانت نساؤهم وأطفالهم يواجهون مشاكل لا حد لها. فعند موت أحدهم فإن أهله في الخارج يطالبون قنصلهم في مصر باسترداد مخلفاتهم. وبدون استثناء كانوا جميعا تقريبا

يعيشون مع نساء بدون عقد زواج. لذلك لا يحق لهم إرث فيما ترك الزوج. الجميلة منهن وصغيرة السن كانت تذهب لتعيش مع أوربي آخر.

في فترة المهدية لم يكن من الممكن السكن مع امرأة دون عقد زواج، ولم يكن هناك تأثير لقنصل يرجع ممتلكات المتوفى إلى شخص يطالب بها خارج نطاق البلاد. إن الذي كان يخلفهم من أبناء وزوجة أو أب وأم في السودان هم الورثة الشرعيون لما أبقى. إذا لم تكن لديه زوجة أو أطفال أو أب أو أم أو أخوة فإن أبناء جلدته هم الذين يرثون ما ترك.

العائلات التي وجدتها المهدية بالسودان ومات عائلها أو مات عائلها إبان فترة المهدية، فإنها تضم إلى قريب زوجها أو والديها أو إلى رجل آخر يتزوج بالأرملة ويكون مسئولاً عن معيشة أبنائها. بالإضافة إلى ذلك فإن بيت المال كان دائماً يستطيع أن يقدم المعونة.

العائلات التي بقيت بعد رحيل عائلها إلى نهاية المهدية هي:

١- عائلة لبنتون بك الإنجليزي - وهو المدير السابق لبحر الغزال - أسمى بعد إسلامه عبد الله، توفي عبد الله في أمدرمان وترك زوجة سودانية تدعى زنوبه وبننتين منها. تزوجت زنوبه بعد موته الطبيب المصري حسن زكي وعاشت معه مع بنتيها.

٢- عائلة استافرو الإغريقي بقيت منها بنته فقط، وقد ضمت إلى عائلة دم تري جورجيو.

٣- عائلة نيكولا الإغريقي الذي قتل في دارفور، بقيت له بنت فقط ضمت إلى عائلة حاج يني.

٤- عائلة فاسيلا يارقوبولو الإغريقي وكان قد قتل يوم تحرير

الخرطوم، بقي له ابن واحد هو ليونيدا ضم إلى عائلة دمـتري
كوكورامبو.

٥- عائلة جورج بك الحكيم - الذي قتل في شيكان - كان متزوجا
من سودانية أنجبت له ولدا يدعى دمـتري وبنتين هما فكتوريا
وروزا. سكنوا مع عائلة الإغريقي بنيوتي وحتى بعد زواج
فكتوريا وروزا.

٦- عائلة فاسيلا الياس، ترك فاسيلا بنتا واحدة كانت تسكن مع عائلة
اسكندر كويوبولوس.

٧- عائلة ماركو بك. ماركو كان مديرا لغازوغي وكان متزوجا
من سودانية أنجب منها ولدا يدعى الكاك.

٨- عائلة الياس اسلامبوليه السوري، كان الياس متزوجا وله بنت
وكانوا يسكنون مع أخيه جورج اسلامبوليه.

٩- عائلة بانيوتي، الوالد قتل في العيلفون، والابن دمـتري بانيوتي
بقي مع أمه وجدته.

١٠- عائلة فتح الله جهامي السوري، ترك فتح الله زوجة وابنين هما
ميخائيل وإبراهيم، وقد سكنوا جميعا مع مبارك خليل القبطي.

١١- عائلة نعوم بلدي، كان نعوم قد قتل في شات وترك ولدين
وبنتا. البنت تزوجت أشاكلي آرئن وأنجبت منه ولدا، كلهم
سكنوا مع يوسف قبيلي.

١٢- عائلة الياس كيما، الياس قتل في شيكان وكان متزوجا من

زوجتين، واحدة حبشية ولدت له ولدا يدعى اسكندر، والثانية سودانية ولدت له بنتا اسميت ماريًا.

١٣- عائلة موريانا اليهودية، توفي نسيم موريانا في أمدرمان وبقيت عائلته التي تتكون من أم مصرية وولدين في أمدرمان.

ماذا كان يعمل غير المسلمين؟

١/ سلاطين كان أول العاملين مع الحكومة. حسب التعاليم الإسلامية فإن غير المسلمين لا يضمنون إلى الجيوش الإسلامية. ورغم أن كل من وجد في السودان إبان المهدية أدعى الإسلام، إلا أنه على ما يبدو فإن الحكومة لم تثق في إسلامهم ولم يضموا إلى الجيش، وربما كان بسبب التوجس الذي غشى مسألة سلاطين. الأمير يونس الدكيم طلب من الخليفة أن يصحبه سلاطين إلى سنار كمستشار عسكري ولا يشترك عمليا في القتال. قبل الخليفة وأرسله مع الأمير يونس، ولكن ما كاد يصل إلى ود العباس على مشارف سنار حتى أرسل له الخليفة لكي يعود إلى أمدرمان ففعل. شك الخليفة في وفائه، أما ما قاله سلاطين في كتابه عن ذهابه إلى ود العباس (إنه كان يفكر في الهرب من السودان).

إن سلاطين ظل يكتسب عيشه إلى لحظة هروبه من السودان من بيت المال. أما عمله فقد كان مع الملازمين الذين يجلسون خارج بيت الخليفة.

٢/ الشماس بولوناري، كان عمل الشماس دومينكو بوليناري قبل تحرير الخرطوم هو الإشراف على حديقة الكنيسة الكاثوليكية بالخرطوم وإدارة ظلمبتها التي كانت تعمل بماكينة بخارية. بعد تحرير الخرطوم ونجاته من الموت، طلب منه أن يستمر في عمله السابق. استمر كذلك

ومرتبه ظل يحصل عليه من بيت المال إلى أن توفي.

٣/ لبتون، كان لبتون كثير الحمق، حاول الكثيرون مساعدته، ولكن حمقه أضاع عليه الكثير من هذه المساعدات. الدكتور حسن زكي - الذي عمل في مفجرات الذخيرة - طلب أن يعمل معه وهو يعرف أنه لا يملك خبرة في هذه الصناعة أو في الكيمياء، فأبغاه معه مدة. أيضا ادعى سلاطين أن لبتون يعرف الكثير عن البواخر فأخذ للعمل فيها ولم يكن يعرف أي شيء عنها.

٤/ الراهبات، كن أهم مجموعة لا تملك صلة بالحكومة أو أعمالها، فقد عملن في حياكة الملابس التي يستعملها الذاهبون للجهاد.

٥/ أوروالدر، جوزيف أوروالدر عمل أعمالا كثيرة قليلة العائد ولكن كانت تكفيه وتكفي لمساعدة بعض الراهبات. أول عمل قام به كان صناعة الصابون مع لبتون الإنجليزي الذي كان حاكما لبحر الغزال. عندما مات لبتون ترك أوروالدر هذه الصناعة واتجه إلى صناعة (صنارات) صيد السمك من أسلاك التلفونات القديمة. عندما ضعف سوقها ولم يجد مشترين لها بدأ صناعة (الزراکش) التي توضع في نهايات الثياب لتجميلها.

أهم المراجع

- تاريخ المسلمين - المكين بن العميد - لندن ١٦٢٥.
- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين - عبد الرحمن بن إسماعيل أبو شامة - القاهرة ١٨٧٠.
- مروج الذهب ومعادن الجواهر - المسعودي - باريس ١٨٦١ - ١٨٧٧.
- صورة الأرض - ابن حوقل - اليونسكو بيروت.
- تاريخ الرسل والملوك - لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري - لندن ١٨٧٩-١٩٠١.
- كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار - المقريزي - القاهرة ١٩١١-١٩٢٧ (ثلاث مجلدات).
- طبقات ود ضيف الله - يوسف فضل حسن.
- تاريخ المسيحية في الممالك النوبية القديمة والسودان الحديث - الأب فانتييني - الخرطوم ١٩٧٨.
- تاريخ وأصول العرب بالسودان - الفحل الفكي الطاهر ١٨٧٩.
- السودان بين يدي غردون وكثنر - إبراهيم فوزي ١٣١٩هـ - (مجلدان).
- من أبا إلى تسلهاي - عبد المحمود أبو شامة ١٩٨٦.
- فتوح البلدان - البلاذري - لندن.

- الكامل في التّواريخ - ابن الأثير - ١٨٥١.
- مجلة الزنبوع الحي - إصدار الكنيسة الأرثوذكسية المصرية.
- الخرطوم - إبراهيم أبو سليم - ١٩٧٩.
- منشورات المهديّة - إبراهيم أبو سليم ١٩٧٩.
- الفداء في دفع الافتراء - محمد عبد الرحيم.
- السودان والثورة المهديّة (جزءان) - مكي شبيكه ١٩٧٨-١٩٧٩.
- دانيال كمبوني - دومنيكو أجاسو - القاهرة ١٩٩٦.
- مخطوطة كاتب الشونه - أحمد بن الحاج أبو علي.
- تاريخ السودان الحديث - ضرار صالح ضرار - بيروت.
- سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي - عبد القادر الكردفاني.
- السيف والنار - سلاطين - نسخة عالم الكتب.
- سهم العروبة - عثمان حمد الله - مطبعة الشمس، الخرطوم ١٩٤٩.

- Sudan Notes and Record (KUSH) 1918.
- History of the Arabs in Northern Sudan, H. Mc. Michael.
- Sudan Archives Documents, Durham, U.K.
- Ten Years Captivity in the Mahadi's Camp. Fr. Ohrwalder 1892.

- Gordon of Khartoum, Turnbull, Folkeston.
- Gordon at Khartoum, W.S. Blunt, 1911.
- The White Nile, A. Moorehead, 1960.
- The Blue Nile, A. Moorehead, 1962.
- The War Office Records and Papers.
- A Prisoner of the Khalifa, Ch. Neufelt, Chapman 1899.
- The Nile, Budge, 12th Addition 1970.
- Siege and Fall of Khartoum, M. Nushi, vol. 1 & 2.

- ٣٦ ----- المماليك يدخلون سواكن
- ٣٧ ----- الملك داؤد يغزو عيذاب وأسوان
- ٣٧ ----- الظاهر يرسل جيشاً لاحتلال النوبة
- ٣٨ ----- شروط تنصيب شكندة ملكاً
- ٣٩ ----- ما بعد الهزيمة
- ٤٠ ----- اغتيال الملك شكندة
- ٤٠ ----- الملك برك
- ٤١ ----- غزوات المماليك على شمامون
- ٤١ ----- قلاوون يرسل الأفرم
- ٤٢ ----- شمامون يعود
- ٤٣ ----- عهد الأشرف وضعف النوبة
- ٤٤ ----- آخر ملوك المسيحية بدنقلا
- ٤٤ ----- برشميو الملك المسلم في دنقلا
- ٤٥ ----- قتل برشميو واستيلاء كثر الدولة
- ٤٦ ----- سلطان المماليك يعين أبرام ملكاً
- ٤٦ ----- كدنبس يصير ملكاً مرة أخرى

- ٤٧ ----- هاية دولة النوبة الشمالية
- ٤٨ ----- دولة المسيحية المتلاشية في دنقلا
- ٤٩ ----- ضعف علوة
- ٥٠ ----- هزيمة علوة الأولى
- ٥١ ----- هزيمة علوة الماحقة
- ٥٢ ----- قيام وسقوط مملكة الفونج
- ٥٧ ----- جيش محمد علي يدخل السودان
- ٥٧ ----- إسماعيل في أرض الشايقية
- ٥٨ ----- الأتراك في بربر
- ٥٨ ----- إسماعيل في أرض العبدلاب والفونج
- ٥٩ ----- الأتراك في كردفان
- ٥٩ ----- الأسباب التي من أجلها جاء الأتراك
- ٦٠ ----- فشل المقاصد
- ٦١ ----- الاستعمار التركي المصري في السودان
- ٦٥ ----- القس الطريد
- ٦٥ ----- الخرطوم الفاجرة

- ٦٦ ----- قصة الكنيسة والمقبرة
- ٦٧ ----- ولم لا
- ٦٨ ----- بابا فرانكو في سوق الخرطوم
- ٦٨ ----- أول كنيسة كاثوليكية بالسودان ومدرسة
- ٦٩ ----- عندما فتحت الكنيسة
- ٧٠ ----- عندما افتتحت المدرسة
- ٧٣ ----- الفاتيكان تحاول مرة أخرى
- ٧٤ ----- الشريف حسن
- ٧٥ ----- جمعية مريم
- ٧٧ ----- عمليات الانتشار
- ٧٧ ----- إمبراطورية الهابسبورق
- ٨٠ ----- المبنى الذي شيد ليقى
- ٨٣ ----- الخرطوم والكنيسة الكاثوليكية
- ٨٨ ----- كنيسة الأقباط بالخرطوم
- ٨٩ ----- كنيسة البروتستانت
- ٨٩ ----- القنصلية النمساوية بالخرطوم

- ٩٠ ----- ضحايا التبشير
- ٩١ ----- التبشير بالدينكاوية
- ٩١ ----- اتباع القديس فرانسيس
- ٩٤ ----- دانيال كمبوني
- ٩٥ ----- التبشير في أفريقيا للأفريقيين
- ٩٦ ----- المحاولة الثالثة
- ٩٩ ----- جمعية أمهات السودان
- ١٠٣ ----- مطران أفريقيا الوسطى
- ١٠٤ ----- الأخبار المزعجة
- ١٠٤ ----- الانتشار
- ١١٢ ----- القدوم الأخير
- ١١٧ ----- الثورة الإسلامية
- ١١٧ ----- التبشير المسيحي والإسلام
- ١١٨ ----- الثورة المهدية
- ١١٩ ----- احميار التبشير المسيحي في كردفان
- ١٢٠ ----- الدعوة إلى المهدية

- ١٢٤ ----- محاولة الانتقام
- ١٢٦ ----- ما بعد الهزيمة المنكرة
- ١٢٦ ----- غردون حاكم عموم السودان
- ١٢٧ ----- غردون والقسيسة
- ١٣٠ ----- غردون في الخرطوم
- ١٣٠ ----- حصار الخرطوم
- ١٣١ ----- استسلام دار فور
- ١٣٢ ----- استسلام بحر الغزال
- ١٣٢ ----- خط الاستواء
- ١٣٢ ----- الزحف عند الإمام المهدي
- ١٣٣ ----- سياسة الإمام المهدي نحو الأوربيين المسيحيين
- ١٣٥ ----- آثار هروب بنومي
- ١٣٦ ----- القبض على محالة التحسس الثانية
- ١٣٧ ----- تحسس سلاطين
- ١٣٧ ----- المهدي يغادر الأبيض ويترك أهل الكنيسة بها
- ١٣٧ ----- أسماء أهل كنائس كردفان

- ١٣٨ ----- حياة الميشرين
- ١٣٨ ----- استراتيجية تحرير الخرطوم
- ١٤١ ----- تحرير الخرطوم
- ١٤١ ----- احتياح الكنيسة
- ١٤٢ ----- الاستيلاء على الكنيسة الكاثوليكية
- ١٤٣ ----- الاستيلاء على القصر
- ١٤٤ ----- ضحايا تحرير الخرطوم
- ١٤٥ ----- ماذا حدث بالكنيسة الكاثوليكية
- ١٤٦ ----- ماذا حدث للقسيسة والراهبات
- ١٤٦ ----- عمليات الهروب
- ١٤٧ ----- أمير المنافقين سلاطين
- ١٤٩ ----- من هم الذين كانوا من أصول غير مسلمة في نهاية المهديّة
- ١٥٠ ----- الإيطاليون
- ١٥١ ----- قبارة
- ١٥١ ----- الأغاريق
- ١٥٢ ----- الأغاريق الذين سلموا في الخرطوم

- أغاريق القضايف ودوكة ----- ١٥٣
- أغاريق بربر ----- ١٥٣
- أغاريق المسلمية ----- ١٥٤
- أغاريق من الباخرة عباس ----- ١٥٤
- أغاريق لم تعرف أماكن استسلامهم ----- ١٥٤
- الأرمن ----- ١٥٥
- سوريون مسيحيون من كردفان ----- ١٥٥
- سوريون مسيحيون من الخرطوم ----- ١٥٥
- يهود استسلموا في الخرطوم ----- ١٥٦
- يهود من بربر ----- ١٥٧
- يهود من كسلا ----- ١٥٧
- عائلات مسيحية ----- ١٥٧
- ماذا كان يعمل غير المسلمين ----- ١٦٠
- أهم المراجع ----- ١٦٣
- فهرس ----- ١٦٧